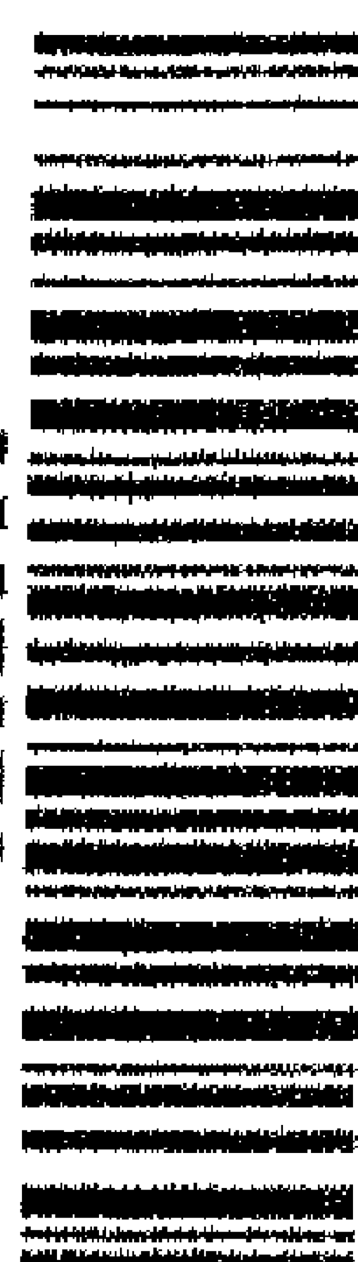


سلسلة أعلام الفكر العالمي





بلزاك

تأليف فيليب برتو

ترجمة دونيا مدثر الرافعي

بـــلزاك

سلسلة أعلام الفكر العالمي

بلزاك

تأليف فيليب برتو
ترجمة دونا مدثر الرافعي

المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بناية برج الكارلتون ـ ساقية الجنزير
ت : ٣١٢١٥٦ ـ برقياً : موكيالي ، بيروت
ص . ب . ١١/٥٤٦٠ بيروت

الطبعة الأولى * ١٩٧٩

نبذة عن حياتـــه

إرتبطت حياة بلزاك بنتاجه ، لذا يتوجب علينا خلال هذه الدراسة أن نظهر بعض الاحداث لنوضح أصل ومسيرة «الكوميديا الانسانية» .

تعدد هذه النبذة بعض الأحداث الواجب الاطلاع عليها لمعرفة طباع المؤلف ومتابعة حركة سير قدره .

ولد هونوري دو بلزاك (Honoré de Balzac) في مدينة تور (Tours) الفرنسية في ٢٠ أيار ١٧٩٩ وترعرع هو وأُخته لور (Laure) لدى مربية في إحدى الضواحي في سان سير (Saint Cyr) . وقبل ان يبلغ الخامسة بدأ بارتياد مدرسة لوجاي (Leguay) في تور . وفي الفترة الممتدة بين ٢٢ حزيران ١٨٠٧ ، ٢٥ نيسان ١٨١٣ تلقى علومه في ثانوية ڤاندوم الداخلية التي كان يديرها رجلا دين تدينـا إثر وقوع الثورة . وخلال هذه السنوات الست لم يزر بلزاك المنزل العائلي ، كذلك لم ير والدته إلا مرة واحدة .

وقد عرف وتحسس الحماس الصوفي خلال تناوله القربان العام ١٨١٤ انتقل أهله إلى باريس. حيث تابع هونوري دراسته أولاً في مدرسة الملكي لوبيتر (Lepitre)، ثم في معهد سانزيه (Sanzer) وبوزولان (Beuzelin).

في الفترة الممتدة بين ١٨١٦، ١٨١٩ درس القانون ثم تدرب لـــدى المحامي الاستـــاذ جيونيـــه دو مـورفيـــل (Guillonnet de Merville). ثم انتقل للعمل لدى كاتب العدل الاستاذ باسيه (Passez)، وتابع في نفس الوقت دراسة الآداب في السوربون.

العـام ١٨١٩ اعتزل في سقيفـة في شارع لـوديفيـا، (Les diguières). وتدرج في الاعمال الادبية لكن دون تحقيق أي نجاح.

العام ١٨٢٠ عاد إلى المنزل العائلي الذي انتقل إلى مدينة ڤيل برسيس (ville-parsis). وأقام فيه بصورة متقطعة لان عائلته كانت قد اتخذت لها منزلاً مؤقتاً في باريس. العام ١٨٢٢ هام حباً بالسيدة دو برني (De Berny) المولودة لويز انطوانيت لور هينر (Louise Antoinette Laure Hinner) ابنة احد عازفي القيثارة لدى الملكة ماري انطوانيت (عرابتها). فقد كانت عائلة دو برني تقضي فصل الصيف في ڤيل برسيس.

كانت السيدة دو برني تكبر هونوري باثني وعشرين عاماً. ولكن هذا لم يمنعها من أن تكون صديقة له لا مثيل لها، فكان لها تأثير

عميق على تكوينه الاخلاقي والادبي. كما برهنت له عن اخلاص كبير، وحب لا حدود له حتى وافتها المنية في ٢٧ تموز ١٨٣٦. لقد احاطت صديقها بحنو كبير. ولولا نصائح هذه «المحبة» لاختلف نتاج بلزاك العصي الطبع.

في الفترة الممتدة ما بين ١٨٢١، ١٨٢٤ ساهم مع مجموعة من رفاقه بكتابة روايات تحت اسماء مستعارة جمعت ونشرت باسم مـؤلفـــــــات اوراس دوسان اولان الكـــــــاملـــــــة (Horrace de Saint Aulin).

العام ١٨١٩ يرتبط بصداقة نبيلة مع إحدى رفيقات اخته لور في المدرسة: زلما تورنجان (Zulma Tourangin) المتروجة من آمر المدفعية كارو (Carraud). وقد كان لهذه السيدة العاقلة والفاضلة تأثير كبير على الكاتب الذي كان غالباً ما يحل ضيفاً على العائلة في مصنع بارود انجولام(Angoulême) ثم في فرابل (Frapesles) ثم قرب اسودان (Issoudun).

والفترة الممتدة ما بين ١٨٢٥–١٨٢٧ تمثل مرحلة الحصول على الثروة من خلال الاعمال: ناشر ثم طابع فمؤسس مطبعة ولكنه لا يلبث ان يغرم بقضية قضائية تؤدي إلى افلاس عائلته وتترك آثارها عليه طوال حياته. ثم يعود إلى الادب.

وفي هذه الفترة أقام علاقة بالدوقه داربانتس D'Arbantès) وساهم في اعداد مذكراتها.

العام ١٨٢٩ توافي المنية والد بلزاك... تحقق له قصة «الثوار الملكيون» التي ألفها في فوجير (Fougères) بعض الشهرة. خلاف مع لاتوش. نجاح صاحب لـ «فيزيولوجية الزواج».

العام ١٨٣٠ بدأ بلزاك بالكتابة في عدة صحف، وباشر بالظهور في عدة مجالس منها مجالس الأميرة باجراسيون (Bagration) والكونتيسة ميرلين (Merlin) والبارون جيرار (Gerard) وصوفي جي (Sophie Gay) وركاميه (Récamier) ولدى اولمب بليسيه Olympe Pelissier وهي نصف سيدة مجتمع. وواتته الشهرة مع مشاهدمن الحياة الخاصة. قضى مع «المحبة» الفترة الممتدة بين حزيران وايلول في غريناديير (Grenadière) وسان سير (Saint Cyr) قرب مدينة تور. واجتازا معاً نهر لوار في مركب بخاري وبلغا سانت نازير (Saint Nazaire) ليعودا إلى كروازيك (Croisic).

العام ١٨٣١ تلاقي «غشاء الكآبة» التي تظهر في شهر آب نجاحاً كبيراً. ولوج التأنق الذي سيبلغ حده الأقصى عام ١٨٣٢. جنون الترف؛ زينة ومفروشات لتجديد منزل شارع كاسيني وتوسيعه. نفقات طائلة متنوعة، حصانان، تلبرية (مركبة خفيفة ذات عجلتين باسم صانعها)، خدم باللباس الخاص، مقصورة في الاوبرا، لباس انيق يعده الخياط المشهور بويسون (Buisson) الذي يَمْثُلْ في «الكوميديا الانسانية». غالباً ما كان بلزاك يعمل خلال الليل ويكثر من شرب القهوة، متدثراً بثوب راهب ذي برنس من الكشمير الأبيض: وقد بقي اميناً لهذه العادة.

العام ١٨٣٢ بدأت المطامح السياسية بالظهور... فشل في خوض الانتخابات النيابية، كذلك لاقت مشاريع الزواج الخيبة. الانضمام الرسمي إلى حزب الشرعية الجديد الذي يقوده كل من الدوق فيتز جامس (Fitz James) ولورانتي (Laurentie)... وتظهر «الامبراطورة الجميلة» في الجزء الأول من القصص المضحكة فتثير انشراح البعض واستنكار البعض الاخر. وكان بلزاك قد أُخذ منذ عدة اشهر بالمركيزة الجميلة دوكاستري (de Castries) ابنة اخ الدوق فيتز جامس، ويلحق بها في آب إلى إيكس لي بين Aix les bains ويرافقها إلى جنيف، نهاية الحلم الجميل في بداية تشرين الأول. وتكون «الدوقة دو لانجيه» (١٨٣٣ – ١٨٣٤) (La duchesse de Langeais) انتقام العاشق الذي تجذبه فتاة مغناج، و«طبيب الريف» (١٨٣٣) البحث عن عزاء. في ٢٨ شباط تصل الرسالة الأولى المجهولة التوقيع من الغريبة البولونية. الأميرة المجهولة.

العام ١٨٣٣ تستمر «الغريبة» في كتابة تصريحات الاعجاب المرتعشة ويرد عليها مطولاً متحمساً مندفعاً خلف هذا الحب الجديد والجميل. يرتاد بلزاك عدة مجالس ارستوقراطية. وتظهر «اجيني غراندي» Eugénie Grandet مؤلّف بلزاك الكلاسيكي الأول. وفي ٢٥ أيلول يتم اللقاء الاول بين بلزاك و «الغريبة» الكونتيسة ايفلين هانسكا (Evelyne Hanska) في سويسرا في نيو شاتل. ويقضي بلزاك خمسة أيام بقربها مع زوجها. لقاء جديد بين العاشقين في جنيف من عيد الميلاد ١٨٣٣ حتى ٨ شباط ١٨٣٤.

العام ١٨٣٤، عام من العمل «الحانق»، «المفرط» دون التخلي عن الحياة الاجتماعية والترف. في ٢٣ آذار سمح لبلزاك بتقديم احتراماته للكونتيسة أبوني (Apponyi) زوجة سفير النمسا. في ٨ أيار شارك في حضور سهرة لدى السفيرة التي قدمته بعد عدة أيـــــام إلى الكونتيسة جيـــــدو بوني فيسكونتي (Guidoboni Visconti) المولودة سارة لوفيـــــل (Sarah Lovell) وهي متهتكة شقراء. وقد تبع هذا التعارف إقامة علاقة... فشل «طبيب الريف» بالفوز بجائزة مونتيون (Monthyon) التي فضلت الاكاديمية اعطاءها إلى السيدة مؤلفة «الاحدب الصغير»، «عائلة القباقيبي» (صانع القباقيب)، في آب ١٨٤٣ أوصى بلزاك على العصا المشهورة ذات القبضة الذهبية المرصعة بالزمرد... تنظيم حفل عشاء ضخم على شرف اولمب بليسيه (Olympe Pélissier) وعشيقها في ذلك الحين روسيني (Rossini) ونوديه (Nodier) وساندو (Sandeau). وقد آوى بلزاك ساندو في منزله في شارع كاسيني بعد ان تخلت عنه جورج صاند (George Sand) واتخذه مساعداً له. كذلك اتخذ ادمون فيرده (Edmond Werdet) ناشراً له رغم اعتماده ستة آخرين. في نهاية أيلول وحتى منتصف تشرين الأول قضى فترة استجمام في ساشيه (Saché) لدى السيد مارغون (de Margonne) للانكباب على «ساروفيم الملاك الطاهر» (Seraphita)، «الأب غوريو» (le père Goriot).

وفيما خص حياته الاجتماعية فهو يداوم على ارتياد الاوبرا. ويظهر كتاب «البحث عن المطلق» وكتاب «الاب غوريو». وتعتبر هذه الرواية قمة عطاء العبقرية حيث تطبق لاول مرة عودة الاشخاص المنهجية.

في ربيع عام ١٨٣٥ أقام بلزاك في شارع باتاي (Batailles) في شايو (Chaillot) في منزل سري استأجره تحت اسم الارملة دوران (la veuve Durand) لانه يريد التهرب من الدائنين وتجنب السجن في أوتيل دي زار يكو (Hôtel des Haricots) لامتناعه عن الالتحاق بالحرس الوطني ولرغبته أخيراً باستقبال الكونتيسة جيدوبوني - فيسكونتي (Guidoboni Visconti) دون رقيب. وبدأ بالعمل في منزله باطمئنان ودون خوف من المتطفلين. وعني باعداد صالون صغير فخم وصفه في «الفتاة ذات العيون الذهبية» وكانت الندرة من اصدقائه تستعمل كلمات سرية مثل «آن موسم الخوخ» للوصول اليه. وكان يعمل ليل نهار وينكب على عمله احياناً ست عشرة ساعة متواصلة. ثم لا يلبث ان يعلن عن رغبته في تأجير منزله القائم في شارع كاسيني إلا انه يبقي فيه طاهيه وساندو.

في ٩ ايار يرحل بلزاك إلى فينا حيث التقى السيدة هانسكا (Hanska) وزوجها. في ٢٠ ايار قابل مترنيخ. وعاد في بداية حزيران إلى باريس. وقد أثار له أخوه هنري بعد عودته من جزيرة موريس المتاعب. قام برحلة إلى بولونيار (Bouleaunière) لزيارة

«المحبة» التي تعاني من انتفاخ في شرايين القلب. في شهري تشرين وكانون ظهر كتاب زنبق في الوادي على حلقات في مجلة باريس (Revue de Paris). واقام بلزاك حفل غداء على شرف سكرتيريه دوبلوا، غرامون ونتان.

العام ١٨٣٦ اشترى بلزاك مجلة «وقائع باريس» لتثير له الكثير من المتاعب الفكرية والمشاكل المالية. في شهر تموز تبادل بلزاك الرسائل مع سيدة مجهولة وهي لويز التي لا يتمكن من لقائها أبداً. قام برحلته القلقة الأولى إلى ايطاليا للدفاع عن حقوق جيدوبوني فيسكونتي في الحصول على تركة. يرافق بلزاك في رحلته غلام صغير يدعى «مارسيل» وهو في الحقيقة امرأة شابة متنكرة بزي فارس وهي (السيدة كارولين ماربوتي Caroline Marbouty. واقام الصديقان في تورين (Turin) حيث تحتفي به الطبقة المخملية. يعلم بلزاك عند عودته من رحلته بوفاة السيدة دو برني «المحبة». قام الرسام لويس بولونجيه Louis Boulanger برسم بلزاك بثوبه الأبيض. فيقوم هذا الاخير بارسالها عام ١٨٣٧ إلى عائلةهانسكي في قصرويرز شونيـا (Wierzchownia). في نهاية شهر تشرين الثاني قام برحلة لمدة عشرة أيام الى ساشيه لزيارة السيد دو مارغون (de Margonne). ثم زار الـدوقـــة دو دينو (de Dino) في تـــاليرون (Talleyrand)، في قصر روشكوت (Rochecotte).

العام ١٨٣٧ زار بلزاك ميلانو (Milan) لملاحقة مصالح آل فيسكونتي. ووصل اليها في ١٣ شباط فتحتفي به الارستوقراطية الميلانية

طوال فترة إقامته. زار مانزوني (Manzoni) ثم سافر إلى البندقية وابحر من جنوى في ٨ نيسان ثم انتقل من ليفورن (Livourne) إلى فلورانسا (Florence)، وعاد إلى باريس في ٣ ايار. لجأ إلى آل فيسكونتي واختبأ في قصرهم في الشانزليزيه ليعمل بهدوء بعيداً عن ملاحقة كاتب المحكمة. ولم ينقذه من المحاكمة إلا قرض قدمته له السيدة فيسكونتي. رحلة إلى ساشيه في شهر آب. استملاك كوخ وارض «الجاردي» (Les Jardies) الواقعة بين سافر (Sèvres) وڤيلدا قرية (ville d'Avray). عمل بلزاك على توسيع ملكيته شيئاً فشيئاً وانشاء فيلا سببت له خيبة كبيرة، وخسارة مالية مجحفة. صدور رواية «عظمة وانهيار قيصر بيردتو».

العام ١٨٣٨ قام برحلة إلى فرابل (Frapesle) لزيارة عائلة كارو وانتهز المناسبة للقيام بزيارة جورج صاند في نوهان (Nohant) حيث بقي من ٢٤ شباط إلى ٢ اذار. قام برحلة إلى سردينيا من ٢٠ اذار إلى ٦ حزيران للاستطلاع عن وضع بعض مناجم الفضة القديمة التي كان الرومان يستغلونها، بعد ان اخبره عنها بعض تجار جنوى في العام الماضي، وكان بلزاك يحلم بانشاء شركة لاعادة الحيوية الى هذه المناجم بهدف الاثراء. زار مرسيليا وطولون واجاكسيو ثم انتقل إلى الجيرو (Alghiero). في سردينيا زار آثار المناجم في ارجنتريا (Argenteria) ونورا (Nurra). العودة إلى باريس عبر ميلانو (لم يكن هذا المشروع خيالياً فقد اثرت هذه المناجم مالكيها بعد ان استغلوها بشكل تقني وفني). وصول الرسالة

الأولى من ايلان دوڤاليت Hélène de Valette المقيمة قرب جيراند (Guirande) . لم يتوفر الدليل على ان بلزاك قد قام عام ١٨٣٨ بزيارة جيراند والكروازيك (Croisic) وباتز (Batz) برفقة هذه السيدة بعدان كان قدتجول فيها برفقة السيدة دوبرني . حدد في هذه المنطقة «عقدة بياتركس» (١٨٣٩). تخلى عن منزليه الواقعين في شارع كاسيني وشارع باتاي ليقيم في جاردي بصورة نهائية مع عائلة جيدوبوني فيسكونتي.

العام ١٨٣٩ قضية بايتل (Peytel) . يتهم كاتب العدل بايتل بقتل زوجته وخادمه مع سابق تصور وتصميم . يحاكم في بور (Bourg) ويحكم عليه بالموت . كان بلزاك قد عرف بايتل عام ١٨٣١ وتعاون معه في جريدته السارق. ولما احيلت القضية أمام محكمة الاستئناف حضر بلزاك إلى بور مع جاڤرني وتشاور مع المحكوم عليه بالاعدام .ورغبة منه في اقامة الدليل على براءة كاتب العدل نشر مذكرة عن قضية بايتل الا ان جهوده ذهبت هدراً وتم اعدام بايتل في ٢٨ تشرين الأول ١٨٣٩. في تموز قام فيكتور هيجو بتناول طعام الغداء في جاردي (فيلا بلزاك) برفقة غوزلون (Gozlon) ، فقد كان بلزاك يود التقدم إلى الاكاديمية الفرنسية.

العام ١٨٤٠ جرى عرض «ڤوتران» (Vautrin) مأساة بلزاك في مسرح بورت سان مارتان (Porte Saint Martin) في ١٤ آذار فتلقى الفشل التام. في ١٦ آذار منع وزير الداخلية عرض المسرحية بحجة ان الممثل

فردريك لوماتر (Frédérick le Maitre) ، قد تصنع وتزين فبدا عند وضعه الشعر المستعار شبيها بالملك لويس فيليب (Louis Philippe) . أصدر بلزاك «المجلة الباريسية» متحملاً مسؤوليات تحريرها بكاملها فظهر منها ثلاث نسخ في ٢٥ تموز، ٢٥ آب و ٢٥ أيلول ١٨٤٠ . ورد في هذه المجلة مقالان مازالا يثيران الاهتمام حتى اليوم. الأول حول تاريخ بورت رويال (Port Royal) لسانت بوف (Sainte Beuve) ، والثاني عبارة عن مدح حماسي لقصة ستاندال (Stendhal) راهبة بارم (la chartreuse de Parme) . غادر بلزاك فيلته لوجاردي في الخريف واتخذ له مسكنا في شارع باس (Basse) في باسي (Passy) . أقامت والدته لعوزها معه لكنهما لا يلبثا ان يفترقا وقد ضاق احدهما بالآخر. باع جاردي بخسارة كبيرة فقد كلفته تسعين الف فرنك لم يسترد منها الا سبعة عشر الفاً وخمسمائة فرنك.

العام ١٨٤١ ، في نهاية شهر ايار تكون حالة بلزاك الصحية قد ساءت فيعمل بصعوبة. في ٢ تشرين الأول عقد اتفاقية لنشر «الكوميديا الانسانية» مع تجمع مكتبات فيرن (Furne) وشركاه دو بوشيه (Dubochet) وهتزل (Hetzel) وبولان (Poulin) .

العام ١٨٤٢ علم في شهر كانون الثاني بوفاة الكونت هانسكي التي كانت قد حدثت في ١٠ تشرين الثاني الفائت. في ١٩ اذار تلاقي مأساته «ثروات كينول» (Les ressources de Quinola) الفشل في «الاوريون. في ١٦ نيسان أعلن بيان فرنسا للمؤلفات الحديثة

(ببليوغرافيا) عن وضع الدفعة الأولى من «الكوميديا الانسانية» قيد البيع. في تموز نشرت التوطئة في الدفعة الاخيرة من الجزء الأول.

العام ١٨٤٣ قام برحلة الى سانت بترسبورغ (Saint Petersbourg) في الفترة الممتدة بين ٢٨ تموز الى ٣ تشرين الثاني حيث التقى بالسيدة هانسكا. في طريق العودة قام بزيارة برلين، بوتسدام، بيبزيك، دراست، لياج وبروكسيل وزار فيها المدن والمتاحف. أصيب بالتهاب احدى الاغشية الثلاثة التي تشكل أم الدماغ. وقام الطبيب ناكار (Nacquart) برعايته. في ٣ كانون الأول أنهى النحات دافيد دانجيه (David D'Angers) نصفية بلزاك الذي ينقاد اكثر من أي وقت مضى لاهوائه.

العام ١٨٤٤ أجهد نفسه بالعمل رغم الظواهر المقلقة التي تدل على ارهاقه الكبير. إستضاف ليرت بوريل، (Lirette Borel) السويسرية معلمة آنا (Anna) ابنة السيدة هانسكا في منزله في باسي قبل دخولها الى بيت المترهبات حيث تدلي بقسمها تحت اسم الأخت دومينيك (Soeur Dominique) وقد حضر بلزاك احتفال النذر في ٢ كانون الأول ١٨٤٥ علماً أنه تفاوض مع الكاهن العام ورئيس الديراوجلية (Eglée) حول دخول ليرت وتبادل الرسائل الحارة مع «الغريبة».

الفترة ما بين ١٨٤٥، ١٨٤٦ في أول أيار لحق بلزاك السيدة هانسكا الى برست حيث تقيم فيها ابنتها آنا وخطيب هذه الكونت جورج مينزاك Georges Mniszech . ويتخذ الجميع اسماء مستعارة لهم

فيسمي بلزاك نفسه بيبلوكيه (Bibloquet) وتسمي ايفلين نفسها آتالاه (Atala) وتسمي آنا نفسها زيفرين (Zéphrine) ويسمى جورج نفسه جرانجاليه (Gringalet).ويتلقبون باسم فرقةالمشعبذين المرحة. يرحل بلزاك مع السيدة هانسكا وابنتها آنا الى ايطاليا. وأقامت ايفلين وابنتها آنا في باريس بصورة سرية لمدة شهر. قام الثلاثي برحلة عبر فرنسا وهولندا وبلجيكا. غيرة السيدة برينيول (Brugnol) اسمها الحقيقي لويز برونيو (Breugnot) خادمة بلزاك وعشيقته التي كان يلقبها «بالانيقة». اختلاس لويز رسائل السيدة هانسكا من بلزاك. في ٢٨ أيلول ١٨٤٦ اشترى بلزاك منزلاً يقع في شارع فورتينه (Fortunée) لاشاتريز بوجون (La chartreuse Beaujon). في ١٣ تشرين الأول حضر بلزاك حفل زواج جورج منيسك وآنا هانسكا. ولادة ايفلين هانسكا لطفلة ميتة بدلاً من الصبي المنتظر والذي أطلق عليه اسم فيكتور هونوري (Victor Honoré).

العام ١٨٤٧ شباط، نيسان أقامت السيدة هانسكا في باريس في منزل مؤسس يقع في شارع ناف دوبرني (Neuve de Berry). مشاغل صحية ومالية. انفاق بلزاك المال دون حساب لتأسيس منزله الواقع في شارع فورتونيه حيث يود الاقامة بعد زواجه من ايفلين. ابتزاز «الانيقة» لا برونيول التي تهدد بنشر رسائل السيدة هانسكا إلى بلزاك. شعور بلزاك بالارهاق الجسدي والمعنوي. تدوين وصيته في ليل ٢٨ حزيران واختلافه مع اميل دوجيراردان

(Emile de Girardin). في ايلول ١٨٤٧ قام بالرحلة الأولى إلى فير سشونيا (Wierzchownia) لزيارة الكونتيسة هانسكا. رحل في ٢٥ ايلول ١٨٤٧ ويصل مرهقاً إلى ابعد الحدود بعد تسعة أيام من السفر. في تشرين الثاني قام برحلة إلى كياف ليعود إلى باريس في ١٦ شباط ١٨٤٨.

العام ١٨٤٨ شهد باشمتزاز تحرر ٢١، ٢٢ شباط ونهب المنازل الملكية في اللوفر. في ٢٩ نيسان فشل بالفوز بمقعد في الجمعية التأسيسية. في ٢٥ أيار تعرض مأساته «زوجة الاب» في المسرح التاريخي فتلقى نجاحاً كبيراً. في الفترة الممتدة بين ٢٨ أيار، ٧ تموز يقوم بلزاك برحلته الاخيرة إلى ساشيه لزيارة السيدة دومارغون. في ٨ تموز حضر جنازة شاتوبريان وبدأ يفكر بالسعي للحصول على كرسيه في الاكاديمية الفرنسية، الا ان دونواي (de Noailles يتنخب باغلبية ٢١ صوت ولا يحصل بلزاك الا على صوتين الاول لـ فيكتور هيجو والثاني لـلامارتين. في ٢٨ كانون الثاني فشل بلزاك من جديد في الحصول على مقعد ڤاتو (Vatout) حيث يفضل عليه سانت برياست (Saint Priest). وفي المحاولة الثالثة لا ينال بلزاك أي صوت.

العام ١٨٥٠. في كانون الثاني ازداد وضع بلزاك الصحي سوءاً، ورغم ذلك بذل مجهوداً كبيراً ورافق السيدة هانسكا والزوجان نيزاك إلى كياف. خلال وجود بلزاك في اوكرانيا أقامت والدته في المنزل الواقع في شارع فورتينه في باريس واعتنت باضفاء،

اللمسات الاخيرة عليه. في ١٤ آذار اقترن بلزاك بالسيدة ايفلين هـــانسكـــا في كنيسة سانت بـــارب دو برديتشاف (Sainte Barbe de Berditehev) وبارك العقد الكاهن فيكتور اوزاروسكي (Victor Ozarowski) صديق العائلة نيابة عن المطران جيتومير. وقد اعترف الزوجان أمام اوزاروسكي المرشد والقس الديني وتناولا قربانهما. لا يزال بلزاك يعاني من المرض. في شهر أيار اتجه الزوجان إلى باريس، وكانت الرحلة متعبة بسبب وضع الطرق وحالات الاختناق التي تصيب بلزاك. وصلا في ٢١ أيار إلى المنزل الواقع في شارع فورتينه، إلا انهما لم يجدا أي مجيب رغم الضوء المشتعل. فكان لا بد من اللجوء إلى حداد لولوج المنزل الذي اعده بلزاك بحب وعناية لـ «جنية الشمال». اضطر بلزاك إلى التزام السرير بعد وصوله مضنى خائر القوى. في ٣١ أيار استشارة عدة اطباء. ١١ تموز ظهور عوارض التهاب الصوفاق وبدء معاناة المريض من الألم الرهيب. في ١٢ آب بدأ جسد بلزاك بالانتفاخ وأصيب بنوبات اختناق وعاني من العطش. في ١٨ آب بدأ بلزاك بالمنازعة والاحتضار وحصل على مسحة المرض. في الساعة التاسعة مساء عاده فيكتور هيجو الذي يحكي في «الاشياء المرئية» (Lés choses vues) لقاءه مع المحتضر. لفظ بلزاك انفاسه الاخيرة في الساعة الحادية عشرة والنصف. في ٢١آب جنازة بلزاك في كنيسة سانت فيليب دورول (Saint-Philippe du Roule) وأبّنه فيكتور هيجو بصوره في مقبرة بار لاشاز (Père La chaise).

الجزء الأوّل

الاستعـــــــدادات

— ١ —
الأصول والتأسلية

تقصي آثار التأسلية

تقصي آثار التأسلية مرغوب فيه ، لاننا نأمل دائماً ورغم ضعف قوانينها ان نستشف من خلالها السطوة السرية التي تحدد القدر بكامله. كون المرء الوحيد الذي توصل الى تعلم القراءة والكتابة من بين احـد عشر أخ واخت ، وباشر العمل ككاتب لدى كاتب عدل في البلدة المجاورة بعد ان قام بحراسة نعاج أهله ، ثم غادر عائلته ليلبي نداء طموحه. هذا الطموح الملتهب كشمس بلاده ، ورحل في السادسة عشرة من العمر سيراً على قدميه سالكاً الطريق الملكية التي تؤدي الى باريس وهو لا يملك من متاع الدنيا إلاّ هراوة في يده وحذاءً محدداً في قدميه وصرة فوق ظهره. ليصبح فيها كاتباً لدى الوكيل ويتولى فيما بعد منصب امين سر مجلس الملك...

هـذه هي ملحمـة وأوذيسّة برنـار فرانسوا بلزاك (Bernard Fransois Balzac) والد هونوري دو بلزاك ، هذا الأب الذي ولد عام ١٧٤٦ في قرية لانوجيريه (La Nougayrié) في خورينة كانزاك Canezac في بلدة مونتيرا (Montirat) في التارن (Tarn). (توفي في باريس عام ١٨٢٩ في الثانية والثمانين من عمره).

ألا يوجد في قصة نجاح هذا الأب دافعاً لتشجيع الطموح الذي كان يلتهب في دماء ابنه ؟ بلا شك سيتفجر هذا الطموح لدى الابن على شكل مشاريع ترمي الى الحصول على الامجاد والغنى . وسيظهر في طلاقة لسانه وخصوصاً في «التعبير الرائع عن هذه المغالاة الروحية وهذا الشعر القاسكوني العاطفي».

هذه النشوة في الأقوال ، وهذا الغش بالتلاعب بالنفس ، وهذا الجيشان من الآمال المدهشة ، وهذه القريحة الخيالية التي تجمل المستقبل وتلونه بألوان ذهبية رغم كل الفشل . هذه كلها تتأتى من الآباء ففي مثل هذا الوسط يتفاخر الآباء والابناء في البحث عن الاضواء ويشغفون بالحديث والمناقشة . «لقد كانوا يعيشون في ترف من الافكار التي لا يمكن ان نتصور ألطف منها . فتمتد السهرات التي كان هونوري يقرأ فيها وينشد كبار المؤلفين من معاصرين وقدامى حتى منتصف الليل . وقد كتب الجميع آلام السيدة بلزاك ، الاخت لور وهونوري نفسه عن هذا الامر واكدوه في مراسلاتهم مع الآخرين . ويؤثر الأب اكثر ما يؤثر على «أدب» ابنه في الفترة الممتدة بين السادسة عشرة والثامنة والعشرين من عمره لمحاوراته معه حول علم الاجتماع والسياسة والتاريخ والعرقية والقانون والدين والفيزيولوجيا حيث كان كل واحد منهما يدافع عن وجهة نظره بحرارة وثابة .

لاحظ بلزاك في سن مبكرة اصالة والده وابتكاره فسجل البحوث التي كان يستنتجها من خبراته وقراءته . ونجد في روايات

الشباب الأولى «ارغو القرصان» (Argow la Pirate). وفي تيار الكوميديا الانسانية خيال الرجل العجوز ونظرياته وعاداته وأفكاره الراسخة. فشخصية الاب توضح شخصية الابن وتفسر عدداً من اتجاهاتها الفلسفية. فقد أخذ الابن عن ابيه «الدين» الذي جاهر به خلال مرحلة شبابه لرابليه (Rabelais) وسترن (Sterne) وروسو (Rousseau) وڤولتير (Voltaire)، وفلاسفة القرن الثامن عشر. كذلك اكتسب منه حبه للبحث عن التأثيرات الفيزيولوجية والنسالة (علم تحسين النسل) والوراثة والنشوء والتربية والحياة الطويلة، وأخذ عنه بالاضافة الى هذا كله هذه القوى الجسدية -القوة الطبيعية- التي كانت تتحدى كل التعب والارهاق المتراكمين، وهذه القوى المعنوية التي كانت تتغلب على كافة العقبات. فهو لم يكن يخطط لهذه المشاريع الكبيرة «لو لم يكن يملك ثقة كبيرة بنفسه» كوالده.

يتوفر عدد من هذه الصفات المشتركة بدرجات متفاوتة لدى الاشخاص المتحدرين من اصل جنوبي، هؤلاء الاشخاص الذين تهز جرأتهم ونجاحهم المثير وحظهم الصاخب و«حيويتهم التي توجه المرء مباشرة نحو الصعوبة لايجاد حلول لها». صفحات متعددة من «الكوميديا الانسانية» رستيباك (Rastignac) نبيل روفاك (Ruffec) الشاب (الاب جوريو) (le Père Goriot) بيناسيس (Bénassis) ابن البورجوازية (طبيب الريف) (Le médecin de Campagne) الجندي الريفي (شغف في الصحراء) (une passion dans le désert) تيودور دو لابيارات

(البورجوازيون الصغـــــــار) (Théodore de la Peyrade)
بـول دو مـــــــــانرفيـــــــل (Les petits Bourgeois)
(Gazonal) جازونال (عقد الزواج) (Paul de Mannerville)
(ممثلون دون علم منهم) (Les Comédiens sans le savoir)
ليليستراد (Les Lestrades) ، ليموكومب (Les Maucombes)
(مذكرات عروسين شابتين)

(Mémoires de deux jeunes Mariées).

اعتبر بلزاك ان «وجود هذا العنصر يستحق دراسة دقيقة من العلم الطبي والفيزيولوجيا الفلسفية» وقد أسخت قصة عمه لويس بلسا (Louis Balssa) الذي اعدم بالمقصلة عام ١٨١٩ في ألبي (Albi) لارتكابه جريمة عاطفية -كان هونوري في العشرين من عمره- فرحة تبادل الآراء بين أفراد العائلة. وقد رأى هونوري ان الفيزيولوجيا هي أفضل مفسرة للواقع وقد كان والده هو أول من علمه هذا المبدأ وبينه له. ولا شك ان بلزاك قد دون عدّة ملاحظات وافكار ردّدها له والده في الطبعة الأصلية من فيزيولوجية الزواج (la Physiologie du mariage) عام ١٨٢٦.

ورأى بلزاك ان معجزات الصدفة التي ندين لها بأعظم الرجال هي «سر الحياة» الذي يصعب على تحليلنا الحديث كشفه». على كل حال برنار فرانسوا بلزاك هو الذي مزق الغشاء الشعبي حيث كانت تغفو العبقرية. ويذكرنا هذا برينان (Renan)، فويو

(Veuillot)، بيغي (Péguy) الذين تحدثوا بانفعال عن اجدادهم المجهولين. لكننا لا نجد صدى مماثلاً لدى بلزاك. فهو يعمل على محو لقب البيجوا (Albigeois) الذي منحه اياه أهله. ولم يشعر قط بالحاجة الى استنشاق رائحة هذا الحقل الذي فني فيه اجداده ليمنحهم نجاحه الكبير. لقد اختار كبار هذا العالم وجهد للنفاذ الى دائرتهم. وقبل بغطرستهم واغتصب شعار بلزاك دونتراج (Balzac d'Entragues) دون ان يرف له جفن، وجعل من نفسه رسام الارستوقراطية التي اخذ منها غالبية شخصياته ونماذجه وقيم الفلاحين بالنسبة الى سيد القصر والاقطاعي البكر.

لقد زيف التطرف الرومانسي رؤآه، فقد بدا له الفلاحون والفلاحات أشبه بمخلوقات بدائية بقيت غرائزها المشدودة الى الارض في طور التوحش والبهائمية مع بعض الاستثناءات البسيطة. ووسمت هذه الواقعية الفظة القاسية المتحيزة والظالمة بالغم والحزن بعض صفحات «طبيب الريف»، «كاهن القرية»، و«الفلاحون». وتمر أمام بعض عيون القراء ظلال محنية في آفاق اخرى بعيدة. ونتذكر الماريشال مونكورنيه (Moncornet) في رواية «الفلاحون» الذي «ينسى ارادياً» انه ابن عامل في ضاحية سانت انطوان (Sainte Antoine). لقد عرف بلزاك بدوره ردة الفعل هذه من الزهو المترفع المزدري لاجداده واعمامه وابناء عمه في قرية نوجيريه.

كانت والدة بلزاك واسمها آن شارلوت لور سالانبيه

(Anne Charlotte Laure Sallambier) تنتمي الى البورجوازية الباريسية وكان والده موظفاً كبيراً في المؤن وابن عمه مطرِّز فساطين وأجواخ استقر في المارية (Marais) واتخذ له اسماً «البزة الذهبية» (La toison d'or).

كانت الام في الثانية عشرة من عمرها عندما تزوجها برنار فرانسوا بلزاك الخمسيني والمغرم بعلم النسالة. كانت جميلة وأنيقة وغنية. إلاّ ان المنزل الذي ولد وترعرع فيه اربعة أولاد هونوري البكر، هانري (Henri) وابنتان لور (Laure) ولورانس (Laurence) لم يكن نموذجاً للفضيلة العائلية كما يتوقع من اتحاد غير متكافئ كهذا. وكانت عبارة الام المفضلة «الثروة، الثروة الكبرى هي كل شيء اليوم» فكان ان تسلطت تصورات المستقبل الذهبي وجشع المال وحب الثروات المترفة على احلام هونوري في سن مبكرة. وإذا اخذنا باعترافاته وكذلك بأقوال فيسار (Fessart) احد اصدقاء العائلة فاننا نجد ان السيدة بلزاك لم تكن تحنو على ابنها البكر وتعتبره «ابن الواجب والصدفة» وتغمر «بمداعباتها المجنونة» ابنها الثاني «ابن الحب»، «ابن الزنى» وتفضله. اصطدم هونوري «ببرودة الامومة» وعرف في سن مبكرة سرها، فحاكم والدته بقسوة في اعترافاته الخاصة التي أدلى بها الى صديقاته الحميمات الثلاث زلمى كارو ودوبرني وهانسكا.

غالباً ما كان هذا الألم السري يستيقظ بشدّة كجرح قديم ونستشف مرارته بوضوح من خلال اشارات بارزة في الاحتفال المئوي

(le Centenaire) وجان الشاحبة (Jane la Pâle) وجعبة القنابل (La Grenadière) وامرأة الثلاثين والزنبق في الوادي. ويصاب القارئ بصدمة عندما يجيد قراءة هذه الاشارات اللمحات فيصبح السرد الخيالي أبلغ أثراً.

قام سوء تفاهم عميق بين السيدة بلزاك وابنها وقد ساهمت امور عديدة بتخريب علاقاتهما، فمن جهة كان هناك عصبية الام وسرعة تأثرها واصالة وجدة لم يكن الابن خالياً منها. وقد كتب يقول «نحن طريفون في العائلة». ثم جاءت قضية المال لتربط احدهما بالآخر فقد كان بلزاك دائناً لوالدته وقد افقرها بعد افلاس مطبعته، وكانت هذه الديون تدفعها الى تبادل اتهامات لا تنتهي : هي بهدف الحصول على «قطعة خبز» وهو ليجدد لها وعوده بالايفاء، هذه الوعود التي بقيت كلامية ولم تنفذ، وتقديم حججه التسويفية للتهرب من الدفع.

ويقال ان هذا البؤس قد ترك أثره في وجوه امومية كثيرة في «الكوميديا الانسانية». هناك وجوه رائعة كالسيدة بيروتو (Birotteau) وليدي براندون (Lady Brandon)، والسيدة هوشون (Hochon) والسيدة صوفيا (Sauviat) وبعضها كريه جداً كماركيزة الجلومون. أفليس التنوع اثراً سعيداً للغنى والحياة.

نلاحظ في وصف بلزاك للام ورود لمسات مشوهة وخاطئة : جي دوماتر وفيكتور هيجو ولمارتين لم يرتكبوا مثل هذه الاخطاء. تقدم مذكرات العروسين الشابتين «١٨٤٦»

للجمهور (Mèmoires de deux jeunes mariées) نوعاً من الشعر الغنائي الذي يرفع الى السماء «فن الامومة العظيمة». تتفتح السعادة فيه مرصعة وفق العقيدة التقليدية. انها ثمرة التفكير الفلسفي الذي لم يسبقه تفتح القلب. كتبت هذه الرواية بردة فعل داخلية: لقد تحرر فيها الكاتب من الذكريات الثقيلة التي ضاق بها بوجود الام. إلاّ ان الشائبة تستمر: حذر الانانية البرجوازية الدقيق الذي تنادي بهِ العروس الشابة على حساب الشرف الزوجي والمسيحي. وأخيراً اقرأوا كتعليق رسائل الى الغريبة في نفس التاريخ وستقتنعون.

اجواء المنزل كانت معادية للمسيحية بوضوح وان تكلموا فيه كثيراً عن الدين بوجهات نظر جذرية فالسيدة بلزاك الفضولية تحب الاطلاع على الافكار، ومراسلاتها خير دليل على ذلك. وتشبع معتقداتها بالتعليم السري للملل التي كانت منتشرة آنذاك: السويدن برجيه، المارتينية والمسميرية. وكانت تتعاطى علم الخصائص المغناطيسية وتمارس التنجيم. وكانت مكتبتها غنية بمؤلفات الكتاب اصحاب الرؤى في الدين والفلسفة. في الزاوية القريبة يقبع سويدن بورج، سان مارتان، الفيلسوف المجهول. وقد وضعت هذه الكتب بين ايدي أونوري الذي كان فضوله ينفتح في سن مبكرة. فاهتز خياله، وتلذذ المراهق بالصور الفردوسية: روعة ولذة. وتظهر ردود فعل هذا التعليم في كافة مؤلفاته. وقد ألف في السابعة عشرة من العمر قصيدة من النثر الموزون ليستجيب لدعوة صوفية: فالتيورن (Falthurne) التي وصفها فيما بعد للسيدة هانسكا بانها

«تمنيات»، «مخطوطة طفل»، «مخطط اجمالي» للوحة الكبرى سيرافيتا (Seraphita). وتدل كلها محاولة جديدة فالتيورن الثانية، العيد المئوي (١٨٢٨)، معاهدة الصلاة (١٨٢٤) على نشاط مثابر لاقامة نموذج ديني على اساس علم الخفايا المارتيني. وتلقي شخصية السيدة بلزاك الاضواء على سير عدّة صفات وأوضاع في الكوميديا الانسانية. ومن المفيد معرفتها بصورة حسنة. لقد تعذبت برؤية موت ابنها وتوفيت في اندليس (Andelys) في أول نيسان ١٨٥٤ بعد ان بلغت الخامسة والستين من العمر.

يظهر تجاذب غريب بين باريس وبلزاك. هل يجب ان نخضع هنا لنفوذ التأسلية الامومية؟ في الفترة الممتدة بين ١٨١٤–١٨٥٠ لم يغادر المؤلف مدينته إلاّ للقيام برحلات عابرة. لنشر بشكل مختصر الى الدور الكبير الذي كانت تلعبه باريس في الكوميديا الانسانية، باريس التي كان يراقبها في ادقّ تفاصيلها، يراقب منازلها ومبانيها «بانتباه العارف المحلل»، باريس التي كان يتأملها كالكائن الحي، «مخلوق» كان يخضع «انسجته وخلاياه» لفحوص فيزيولوجية. كان من هؤلاء «الذين يتذوقون باريس ويعرفون وجهها جيداً فيلاحظون كل تؤلول، كل حبة، كل احمرار». سيكرسها ملكة وسيدة في مؤلفه الضخم فتشكل قلبه المخيف. فقد عرفته المدينة الاسطورية ذات السماوات الخرافية، «صاحبة المئة ألف رواية»، عرفته تلميذاً وجامعياً، كاتباً لدى محام، كاتباً مبتدئاً، بوهيمياً، عاشقاً، مغروراً وكاتباً شهيراً. عرفته، أثارته وتوجّت كل حماسه. لا بد من قراءة

اجزاء من الحياة الباريسية وخصوصاً وصف باريس في فيراجيس ، الفتاة ذات العيون الذهبية (Ferragus la fille aux yeux d'or) والاب غوريو للاعجاب برونقها. لقد عرف بلزاك كيف يضخ كل العصارة والماهية والتناقضات في هذه المواطن المناسبة لعبقريته الخلاقة. وتذكر رواياته غشاء الكآبة ، زاد ماركاس (Z. Marcas) الشهداء المجهولون (les Martyrs ignorés) اعتراف طبيب الريف ولوجيات مؤلفات متنوعة (œuvres diverses) تذكر بشبابه المشتعل الطموح.

* * *

أخيراً ولد بلزاك في مدينة تور في ٢٠ ايار ١٧٩٩. وغادرها عام ١٨٠٧ بعد أن بلغ الثامنة من العمر حاملاً معه الى مدرسة ڤاندوم ، «الذكريات الأولى في حياتي –كما يقول في زنبق الوادي– الشعور بالجمال الذي يتنفس في ربوع تور والذي تأقلمت معه». وتميز هذه البصمة بصورة واضحة مؤلفات المستقبل. لقد نشأ حتى الرابعة من عمره ، كأخته لور ، لدى مربية تقيم في سان سير وهي احدى ضواحي تور واحدى اجمل مواقع منطقة تورين. وكانت منازل القرية البيضاء تمتد على طول التلة ، «تحيط بها اشجار الحور الجميلة التي كنا نسمع حفيفها». وتحاذي التلة نهر لوار الذي تمضي مياهه المتموجة ببطء بين الضفة الرملية النحاسية وتدفق الساقية الشقراء ، والجزر المخضوضرة ووريقات الصفصاف. وكانت المراكب الشراعية البيضاء تمر جماعات وقد نفخها الريح فترسل الاصداء

اصوات واغاني البحارة. وكان الطفل يفتح نظراته على الحياة في ظل هذه السماء الكبيرة الصدفيةويستحم في هذه الاجواء الهادئة الساحرة، «حيث تسود طيبة الارض الصافية لا الجرأة ولا الفخامة»، كما كان يقول في انطباعاته حينذاك. تتلاشى التلال المزروعة المخملية في البعيد وهي تبدو ملطخة بالبقع البيضاء التي تكونها القصور والبساتين الصغيرة التي تحيط بها رياض الازهار والعريش «في ظل سمائك الصافية شهدت نظراتي الأولى فرار الغيوم الاول». وقد وسم هذا الذهول وهذه الدهشة انطلاقة حساسيته المبكرة «هذه النبذات الضائعة في ذاكرته» التي ادهشت كل أهله في طفولته كانت تشكل اللوحات التي تسعد حنين تلميذ فاندوم.

هذه الاحاسيس الأولى ارتسمت بعمق في نفسه وستكشف عن حقيقتها وعنفها وسحرها في دراسة الروائي المبتدئ الأول ستيني (Stenie) ١٨١٩ فاحداثها تدور في تور وسان سير.

وتلعب هذه المناظر الطبيعية التي وصفها بدقة وحب دوراً اساسياً مرتبطاً بالاحداث من خلال المشاعر التي تثيرها في نفسي البطلين الرئيسيين جوب (Job) وستيني.

في نيسان ١٨١٣ يعود المراهق الى تور بعد أن امضى في مدرسته ست سنوات لم يغادرها خلالها اطلاقاً. ويتابع خلال عام ١٨١٣ - ١٨١٤ دروس الصف الثالث في الثانوية ويتجول كذلك في المدينة دون ان تتعب عيناه من تأمل مبانيها. ويتذوق روعة المنازل

العتيقة والاحياء التي تحافظ فيها الطرق الضيقة الملتوية على مسحة من القدم. ولا شك ان اجواءها ستوسم اكثر من قصة مضحكة... وتجذبه كاتدرائية سانت غاتيان (Saint Gatien) بظلالها ، وغالباً ما كان يتسكع في «صحراء الحجارة» التي تحيط بغنائها عند تدفق الاحاسيس الدينية والرومانسية في طرقها الصامته حيث تصل خفيفة امواج شجية من الاغاني المقدسة وتوج الارغون الضخم. وينشر بلزاك بعض الشيء عن غربان الزيج «التي يقلقها ارتجاج الاجراس»، وسيحي طيرانها قدرته على الوصف. وتقول اخته لور «ان اسم سانت جاتيان كان يوقظ في نفسه عالماً من الذكريات». ويردّد هو نفسه انه خضع لسحر عظمة الطقوس الدينية. وكم من روايات حفظت آثار هذه الانطباعات! ستيني، جان لابال (Jane la Pâle) المحرومة (l'excommunié) الاستاذ كورنيليوس (Maitre Cornélius) امرأة الثلاثين كاهن تور ورواية غير كاملة الكاهن الكاثوليكي (le Prêtre Catholique).

كانت تجذبه عظمة النهر وتشده فيعود الى ارتياد ارصفته وضفافه «حيث يبدو نهر لوار العريض وكأنه يسيل في قناة واسعة نحتها فنان». وكان يشعر بالفخر لولادته في احدى هذه الابنية العظيمة المنتصبة كلها على نفس المستوى الهندسي الذي جعل من الشارع الملكي - قبل ان تهدمه الحرب - درباً منتظماً متناسقاً كلاسيكياً». وقد اشاد به في «المناجاة» (L'apostrophe) احدى القصص المضحكة بنشيد بياني عنائي. ويمكننا أن نشير الى كثير من لمسات السحر التي

تركتها التوراة على طباعه ونتاجه.

أمضت عائلة بلزاك ستة عشر عاماً في تور قبل ان تغادرها نهائياً في أواخر سنة ١٨١٤ بعد ان اقامت علاقات وعقدت صداقات مع خيرة المجتمع. ولم تنقشع اجواء تورن وتتبدّد بسهولة. فقد كانت الجلسات العائلية تحيي ذكرى الريف الجميل حيث غمر النجاح آل بلزاك. ونجد ان العائلة قد حافظت على مصالحها في تلك المنطقة فأبقت على مزرعة تبلغ مساحتها ستة عشر هكتاراً في ضواحي تور ولم تتنازل عنها إلاّ بعد عام ١٨٣٠. وقد تمسك هونوري طوال حياته، حين كان يبغي اراحة فكره المتعب أو يود البحث عن الوحدة أو يتوق الى الصمت المهيئ لبذل الجهود الكبيرة، بزيارة احد اصدقاء والدته الحميمين السيد دومارغون صاحب قصر ساشيه. وقد عاش في هذا المنزل اجمل أوقات حياته وأكثرها انتاجاً وكتب فيه بعض أجمل روائعه «لويس لامبير» (Louis Lambert) «البحث عن المطلق» (La recherche de l'absolu)، «الاوهام الضائعة» (les illusions Perdues) «سيرافيتا»، الاب غوريو، قيصر بيروتو»، و«الزنبق في الوادي». وهذه الاخيرة تدور احداثها في ساشيه.

وسط هذه الطبيعة التي كان المؤلف يحيي فيها الاطياف المحبوبة، كانت حساسيته تلتقط وتترجم كل رائعة من روائع وطنه الصغير: روائع الطبيعة وروائع الفن، عذوبة مناخه المطلق، شفافية ضوئه حيث تبرز حدود الاشياء بنتوء غريب الوضوح. بأي حماس شرع في

حب وهاد «لوار» والشار (Cher) والآندر (Indre) والسيسة (Cisse) ، ولدانة تموجاتها الساحرة : «لا تسألوني بعد اليوم لمَ احب التوران ، فأنا احبها لا كما يغرمون بالمهد ولا كما يهيمون بالواحة في الصحراء ، انا احبها كما يهوى الفنان الفن ! لعلي لما كنت أحيا اليوم لولا التوران» !.

* * *

هل تسكعت في نواحي ساشيه وفوفريه (Vouvray) المشهورة اليوم وانت تتصفح الروايات التي حققت شهرة بلزاك؟ هل نقلت عيناك بين المنظر الطبيعي وتصويره الفني؟ اذا قمت بذلك فانت لست من هؤلاء الذين يأخذون على بلزاك ضعف موهبته البصرية. على العكس من ذلك تماماً أنت تلاحظ في رسومه صلابة خطوطه ولا ادري أي ارتجاف في الوانه ! فهو دقيق ، يحدد في الرأي بعض نقاط الاستدلال التي تشكل بالنسبة اليه بعض اشارات الصحة والاستطلاع ، كما هي الحال بالنسبة لقرائه اليوم لان سماء الفتنة ما زالت تتمتع بنعمتها الخالدة ولم يصبها العجز. ووصفه «حقيقي ، صادق بصدق حميم وعميق وهو يكشف سحر الخطوط والاضواء الاكثر سرية» كما قال القاضي اندريه هالي (André Hallay). تكشف غنائية الشاعر عن رقة في الكلمات وتوقد في الاحاسيس تنبعث مرتعشة عندما يستجلبها ويبحث في اعماقه عن الصور الرومنسية. وكان يحب ان يكرر القول بان روحه قد سجلتها الى الابد. لقد قامت قرابة وثيقة بينها وبين حياته العاطفية. وكان يسلمنا اسرار فؤاده

وافتتانه حين يقرب ابطاله من السكون المتناسق الذي يمنحه سحر الطبيعة اللذيذة الضبابي الدقيق الى الاحساس كما في «جعبة القنابل». ألم يضم هذا المنزل في أحضانه عام ١٨٣٠ الكاتب الثمل بمجده المستجد و«المحبة» التي كانت تحول فخرها وعزتها الى حنو متجدّد؟ ألم يضم هذا المنزل وهو يعيد بناء هذه العلاقة بين ابطاله ويقودهم الى هذه الاماكن نفسها مما يجعل وصفه لطبيعة توران غير قابل للنقد الذي يوجه للبعض حول عدم وجود صلة نفسية بين الوصف والعقدة. وتعطي رواية الزنبق في الوادي خير دليل على ذلك.

فهذه الرواية تنتمي الى مجموعة الروائع الملقبة بمرحلة التوران. وبالاضافة الى اللائحة المذكورة سابقاً نعدد «جعبة القنابل»، «السيدة فيرمياني» (Firmiani)، أوجيني جراندي، «جوديسار الشهير» (l'illustre Gaudissart) و«الصديقان» (Les deux amis) (لم تكتمل)، دون الكلام عن عدّة قصص مضحكة والمقالات والرسائل. وتعتبر رواية «زنبق الوادي» في آن واحد مجموعة اناشيد وكتاب مذكرات فكم ورد فيها من الصفحات البيانية، العابقة بالعطر، الهادرة الملونة بالتماس مع هذه الطبيعة الضاحكة، هذه الارض المؤثرة، هذه المواقع المتقلبة دوماً في تيهها المتأنق! من استطاع ان يعطي صورة أفضل من بلزاك من بين رسامي التوران الحديثين والمعاصرين، موريس بودال (Maurice Bedel)، هنري جارلين (Henri Guerlin) اندريه هاليسة

(André Hallays)، جـــــاك مـــــاري روجيـــــه (Jacques Marie Rougé) اندريه توريه (André Theuriet) عن حسن «واديه الغالي» المحتبك الذي كان يقول فيه انه يسكن الآلام ويوقظ الاهواء؟ ويفيض «وادي الحب» بالشعر الغامض الذي يغدق في قلب حاج ساشيه ليسمعه صوتاً ملهماً ويغذي رغباته الاكثر خصوصية ويتعهد احلامه الشهوانية ويشفي اهواءه الميؤوس منها يحتفظ الاندر (Indre) مع بلزاك بمظهر حورية الماء القديمة الهاربة وسط الحقول والمتدحرجة كالثعابين بين خطوط القصب والصفصاف الملتوية والنارية من العيون العابرة أو اللامكترثة وهذا وفق الساعة أو الفصل، والمنبثقة من قلب الدوامة حين يصفع دولاب الطاحون الجدول، لتعود الى الظهور خلف باقة من الاسل متوجة بالفينوفّر وزنبق الماء كما لو انها تريد اجتذابك نحو قصر ريفي قصير أنيق يتحرى في كريستال مقبض خجول ويحيط به ذهب الحور الشاحب.

ونؤكد اذا انتقلنا الى الجغرافيا الاقتصادية والغذائية والمذاقية انه قد توغل الى كافة الميادين واحب كل انواع مذاق ريفه. ويمكننا ان نردّد نفس الشيء عن تاريخ منطقته ومبانيها وقصورها وكنائسها ومنازلها فقد وجد فيها موضوع أو ديكور عدة قصص. كذلك لم يكن بوسع بلزاك أن ينسى سكانها فكرس لها في «جوديسار المشهور» فقرة طويلة: وهو يشير الى ان ميزاتها هي الانعكاس الحقيقي للطبيعة المكتنفة بها. وقد اسند بفضل نظريته حول البيئة نفوذاً كبيراً للتوران. اذ تتوفر في مواطن رابليه السخرية والهجاء والفكر

القصصي الماكر! ولكنه بالاضافة الى هذا كله فهو موطن القصور الرائعة وارض الملذات التي عجز الملوك والملكات ومحظيات الملوك وجلساؤهم والفنانون ان يتخلوا عنها في عصر الانبعاث... في هذه الاجواء تطفو الرقة والادب، والشغف بالفنون الجميلة، والشعر الملتهب والعطر المثير. هذا ما يتنشقه الوليد في توران مع أول رشفة عبير. ولكن لا بد من نقل التوريني الأصيل الى مكان آخر لتطوير كل هذه البذور وتحقيق الوعود التي تضمها وإلاّ فان نعومة الهواء وجمال المناخ وسهولة العيش تنال من ارادته على المدى البعيد. واظن ان بلزاك يطري نفسه هنا وبامكاننا ان نرد عليه ونفند له القول ونقدم له الحجج! لماذا كان يعود دائماً ليجدد قواه في هذه الاجواء؟ اذن، نجد في معارضته أدباً أكثر مما نجد فيها تعبيراً عن الواقع. ويدل الانتصار الذي يحققه سكان قوقريه على جوديسار ملك الوكلاء المتجولين والمتشدقين النورماندي الاصل، الذي بات باريسياً بالتبني كما تبين قوة ثرثرته المخاتلة على الاحتدام الذي كان يكنه لمواطنيه الذين يقاسمهم ميزاتهم واخطاءهم المحببة في غالبيتها. كم من مرة اعرب عن رغبته في قضاء أيامه الأخيرة في هذه المنطقة التي احبها! فقد كتب مثلاً الى راتية (Ratier) مدير الخيال (la Silhouette) في رسالته المؤرخة في ٢١ تموز ١٩٣٠ «آه لو كنت تعلم ما هي اللورين... لقد بت اعتبر النجاح والمجلس النيابي والسياسة والمستقبل والادب ككريات لحم مسموم لقتل الكلاب الشاردة التي لا مأوى لها، وأرى ان: الفضيلة والسعادة والحياة هي ايراد ستمائة فرنك على ضفاف نهر اللّوار

.(Loire)

ثمة كثير من الأقاليم التي ساهمت بمواردها في تغذية وحيه : إيلْ دو فرانس (Ile-de-France)، برّي (Berry)، بورغونيْ (Bourgogne) بروفانس (Provence)، سافوا (Savoie) ، كونتا (Contat) أنغوموا (Angoumois)، بريغور (Périgord)، دوفينة (Dauphiné) : فقد كان من الواجب ذكرها كلها.

ما من اقليم من هذه الأقاليم شُرِّف بحبٍ اكبر من حب هذا الابن البار الفخور بأصله.

وبامكاننا ان نستنتج بدقة انه لولا تأثير مسقط رأسه عليه، لما استطاع بلزاك ان يكتسب معنى الوحدة، والمقياس والانسجام التي عوّضت، ولو جزءاً يسيراً، من صلف وحمية وراثيته الجنوبية.

لقد عرف ان يعطينا الاحساس بالحياة الاقليمية. وان يعيّن ذهنية كلِ اقليم. فأبدع في تصوير المدن الصغيرة الغارقة في ماضٍ من الكآبة لأنَّ مجدها الذي ساد قد باد الى الأبد.

وأحبَّ ان يبعث مآثرها من جديد : بروفانس (Provins)، بيارات (Pierette)، إسّدون (Issoudan)، لارابويوز (La Rabouilleuse)، سومير (Saumur)، أوجني غراندة (Eugénie Grandet)، الونسون (Alençon)، العانس (La vieille fille)، لوكابنية ده انتيك ، Le Cabinet) des Antiques)، نموى (Nemours) اورسول ميروّوا

(Ursule Mirouët)، انغولام (Angoulème) ايليزيون باردي (Illusions perdues)، سانسار (Sancerre) لاميز دو دبرتمان (La Muse de Département)، بزنسون (Besançon) البارت سافاروس (Albert Savarus)، الخ..

فبيت، أو أثر تذكاري، أو أثاث، أو اشراقة مثيرة للاعجاب كانت تكفي لتكثيف الأفكار المرشدة للبيئات الاقليمية، بغية كشف ما استتر من حياتها المخنوقة.

لكن علينا الأ نثق بهدوء هذا الجو، فهو يغلّف ويخفي من الأجواء، والمصالح المتضاربة، والانفعالات الساخنة للخصومات المتعددة الأنواع، والأحقاد، الشيء الكثير.

وتثار على الفور لويحة المدنية الصغيرة التي شرع بها لابروبار (La Bruyère): «هناك شيء لم نره مطلقاً تحت السماء، والذي، حسب كل الدلائل، سوف لن نراه أبداً: هذا الشيء هو عبارة عن مدينة صغيرة لم تتقاسمها الأحزاب، عائلاتها متحدة غير مفككة، وأبناء العم فيها يتلاقون بكل ثقة، والزيجة فيها لا تحدث حرباً أهلية؛... منها أبعدت الثرثرة، والأكاذيب، والنميمة...».

وكان بلزاك أول من دفع بهذا الكشف حتى في أدق التفاصيل في العادات: لا احد قبله كان قد اماط اللثام عن الأسرار المأساوية التي تخفيها الرتابة الواضحة للحياة الاقليمية حيث الحساب والتفكير المستمر «يُعيران قيماً كبيرة لأعمال ليست ذات قيمة».

وأخيراً، فقد أوضح التغييرات العميقة التي كانت الثورة قد حملتها في تخمين القيم الاجتماعية، وفي العلاقات ما بين فئات الشعب الواحد. فالبورجوازية الصغيرة تستولي على السلطة السياسية التي كانت بحوزة النبلاء (الفلاحون). والخصومات تتفاقم؛ «النُظُم أصبحت رجالاً، ورجالاً ذوي اهواء لا تقف عند حد؛ فهم ينظرون الى بعضهم البعض وكأنهم مبارزين، منهمكين بكراهية بعضهم كلاعبي القمار المعدومي الرحمة».

وتخلق الآراء السياسية مودات خاصة تنعكس على الأطفال. وفي هذه النقطة كما في الكثير غيرها، كان بلزاك مؤرخاً: فهو لم يكتفِ برواية ما يراه وحسب، وانما ما يستعلم عنه في محادثاته مع الأهل والأصدقاء.

وقد لوحظ ان بلزاك كان يهتم بالحقائق الاجتماعية أكثر من اهتمامه بلوحات الطبيعة. فهذه الأخيرة، لا ترتدي طابعها العميق ما لم تكن ممزوجة بدراما فكرية، تعلق وتبلبل روح الأشخاص: فبأعينهم، ومن خلال أفكارهم، يشاهد القصصي ظروف المنظر الطبيعي، وظروف العاطفة والوجدان. وفي هذا الصدد كثيراً ما نستشهد بـ«طبيب الريف وخوري الضيعة» Le Médecin de Campagne et le Curé de Village

فالدكتور بناسي (Bénassis) بقلبه الحزب بالخيبة، وبذكرى ضعفه وخَوَرِه، نطق بهذه الكلمة: «حب الطبيعة هو الحب الوحيد الذي لا يخدع الآمال الانسانية، فلا وجود لخيبة الآمال في الطبيعة».

ويفرح «بلذات» عظيمة بشعوره «بالروائح المنبعثة من صُمْغية شجر الجوْز ومن عرق الأشجار الحرجية» هو نوع من «الاحاسيس لا يشك بها أناس المدن». ففي الجادة الرائعة «رواق من الاخضرار حيث وقع حوافر خيولهم ترن كما لو كانت تحت قباب الكاتدرائية». «وبالتأكيد، يوجد هنا شيء ما ديني، كما يقول بناسي للقائد جناستا (Génestas)، وشعورنا بصغارتنا وتفاهتنا يُعيدنا دائماً امام الله». وڤارونيك غراسْلن (Véronique Graslin)، يستخلص الشيء نفسه من نزهاته على جواده خلال غابة مونتنياك (Montégnac). فروحه الموحشة، المعذبة بوخز الضمير، تشترك مع «الحزن العميق الذي تعبّر عنه هذه الطبيعة الوحشية، المخربة، المهجورة، والمجدبة في آن معاً، والتي تتجاوب مع مشاعره المخبأة». وبالنهاية، فانّ الهدوء الصارم، وسكون القمم المشجرة، توجّه افكاره واحلامه نحو «نسق ونظام من الأعمال» ارفع، واعلى مرتبة من تلك التي تصب فيها عادة: يجب الخضوع لقانون الاستغفار.

فالازمة الأخلاقية التي يتخبط فيها كل من ضمير بناسّي وڤارونيك، تتطلب بأن تقوم مشاهد الطبيعة بتوجيه خط سير افكارهم التائبة نحو هذه الاعلاءات الدينية. الشيء عينه حصل لـكاميْ موبان (Camille Maupin) بياتريكس (Béatrix)، التي خاب ظنها في حبها لـ كاليست دي كانيك (Calyste du Guénic): فلا نهاية المحيط رمته بين أذرع الله. لابورس (La Bourse)، لابو ده شاغران (La peau de chagrin) ابنة الثلاثين (La Femme de

(Le Lys dans la vallée) الزنبق في الوادي (.trente ans
كل هذه المؤلفات تدلنا على انّ ساعة الأصيل تتحدى الأحلام الناعمة حيث يجد القلب بلسماً وعزاءً لعذاب الحب ، أو إثارة ملائمة للزهد بالمداعبات والملاطفات وللاعترافات المضطربة : هنا تصبح الطبيعة شريكة للعشاق. لهْ شوان (Les chouans) ترفض بشكل تام علاقات الطبيعة مع جسم الانسان : ولسوف نرى ذلك فيما بعد. فأوصاف الطبيعة تغزر في «الملهاة الانسانية» (Comédie Humaine) حيث نستطيع ان نؤلف منها مجموعة مهمة : فالبحر والجبل والوديان يكثر وصفها فيها مع بعض الإطالة والاطناب حيناً ، وبعض الكمود والشحوب حيناً آخر. فقاطعة جبال دور (Dore) وقمة ساني (Saney) قد أثيرت في «فروة الهم» (La Peau du chagrin)، وهي بمثابة وصف طوبوغرافي للمنطقة .. والكاتب يكدّ نفسه في مضاعفة التناقضات. ونحن نحسّ بهذا المجهود المضني في البحث والتنقيب عن التعابير الغريبة. فلنقرأ ثانية في كتابه «خوري الضيعة» قصة العيد حيث يحتفل بتدشين السد الذي يحول وادي غابو (Gabou)، كلية مؤمناً له حضوبة رائعة ، وجاعلاً من منتزه مونتانياك مكاناً للسحر والافتتان. على انه يجب ان نعترف بأنّ هذا الوصف كان ينقصه الوضوح والرونق ، فتكثر فيه الصفات المبتذلة والعادية : «اناقة تامة» «تأثير ساحر» «مرسوم بتفوق» «مواقع جميلة» «اثاث جميل» لمنزل ريفي صغير، «جداول صافية»، «يوم رائع»، «شلالات شجية». فهذه الكلمات وهذه الصفات لا تحمل معها موكبها من الصور البصرية

والسمعية. فنتوقف عند هذه العينات لنقتنع بأن لوحة الوان بلزاك تحتوي احياناً على الوان غير براقة. فالابتكار الفعلي هنا غير متوفر، ولا يُعادل دائماً القوة الانفعالية امام مشاهد الطبيعة.

وكم من تكرار في أسطر قليلة! وبالمقابل، فإن الكتاب ذاته، وعلى بعد صفحات قليلة، يقدم لنا انطباعاً جميلاً بمساء القرية، ومشهداً للحصاد حيث النداوة والحقيقة والواقع تعطي جميعها للشعر اجنحة، وتشير الى حساسية صادقة: فهي لا تتطلب أي تسامح من المعجب.

وجملة القول، ان بلزاك وإن لم يصل الى اشراق وسطوع شاتو بريان (Chateaubriand) وفيكتور هيغو (Victor Hugo) فإنه كان موهوباً بملكة نظرية، وعندما كان يصف فإن لوحاته كانت تسحرنا، وان لم يكن ذلك دائماً، باحكام قسماتها اكثر من اصالة تعابيرها.

- ٢ -

بداية النجاح

ظهرت موهبة «الشاعر» كما سماه رفاقه في ثانوية ڤاندوم منذ كان في الصف الثالث متوسط. وقد ثابر «القرزام» في شغفه. ولم تكن محاولات المبتدئ تتعدى ميدان الشعر عام ١٨١٨. فكانت «رومانسية» وفق اسلوب لامارتين، ثم مدعية كلاسيكية وفق اسلوب ڤولتير. وقد حاول كتابة الملحمة مقلداً لاهانرياد ثم انكب على كتابة مأساة روائية (كرومول) ١٨١٨، إلا ان فشلها الذريع دفعه إلى التحول نحو آفاق أخرى في طموحاته الأولية. وكانت الفلسفة قد اجتذبته، فقد تابع في السوربون في الفترة الممتدة بين عام ١٨١٧ – ١٨١٩ محاضرات فيكتور كوزان (Victor Cousin الذي «كان يبدو ككائن غريب قادم من عالم لا مرئي لاعلان أمور مجهولة» كما يقول فيليب داميرون (Philippe Damiron). واذا قارنا بين النظريات التي كان يجهر بها لويس لامبير في رسائل باريس المؤرخة العام ١٨١٨، بينما كان يتابع دراسته في السوربون، والأفكار التي عالجها فيكتور كوزان في نفس الفترة فاننا سنلاحظ محاكاة دقيقة وشبهاً غريباً. لقد كان فيكتور كوزان يدرس الأشكال التي اتخذها الشعور الديني على مرّ القرون في كل اثارتها لدى كل المتحلين بموهبة خارقة ولدى معلميه الأسرار (معلم الأسرار كاهن يوناني قديم كان

يدرب على أسرار الدين). ويبحث في قوانين علم النفس الفيزيائي عن تفسير لهذه الظواهر، واضعاً على نفس المستوى دلائل التعصب ومظاهر القداسة المسيحية الحقيقية من كشف ونشوى وذهول التي أصبحت حبكـــــة لكتـــــاب «الكتـــــاب الصوفي» (le livre Mystique) ، «المحرومون» (les proscrits) ، «لويس لامبير» ، «ساروفيم الملاك الطاهر (١٨٣١-١٨٣٥). وكان يبين تكون وتطور المعتقدات في ظل التأثيرات العرقية والجغرافية، ونجد أن هذه الفكرة قد احتلت دوماً جانباً كبيراً من أفكار بلزاك الذي كانت تقلقه بصورة أساسية قضيتان: الوجود والروحانية، خلود الروح. ويستدعي مثل هذا الاهتمام لدى شاب في الثامنة عشرة من العمر التقدير الذي كان باسكال يكنه لهؤلاء الذين يتفاعلون معه. وقد اقتنع بلزاك بتفسير علم النفس الفيزيولوجي «كابانيس» (Cabanis) المتوافق مع فلسفة القرن الثامن عشر الجذرية واعتنق الالحاد أو التأليهية (مذهب التأليه الذي يقر بوجود الله وينكر الوحي والآخرة) المبهمة إلى حد تبقى معه غير فعالة على صعيد الضمير الانساني. وقد دوّن أفكاره في (ملاحظات حول خلود الروح والدين والفلسفة).

لماذا يجب أن نكرر الحديث عن الحياة القاسية التي عاشها الكاتب المبتدئ عام ١٨١٩ في شقته شارع ليدي جيار (Les diguières) القذرة؟ من الأفضل أن نتابع حبو فكره وخطواته الأولى. لقد استعمل هذه الملاحظات في محاولاته الرومانسية

الأولى (فالثيرن) (Falthurne)وخصوصاً ستريني أو الأخطاء الفلسفية (sternie ou les erreurs philosophiques) (١٨١٩).

وتعتبر هذه الأخيرة رواية تراسلية تأثرت إلى حد ما بأنفاس إلويز الجديدة (la nouvelle Héloise). وتوازي كل رسالة موضوعاً فلسفياً (ألفه طالب الفلسفة بلزاك). وتدل الحجج على عبثية مبادئ علم اللاهوت الكاثوليكي وخصوصاً مبدأ وجود الله والروح والجمال ووضوح الحقائق القياسية التي تفوق الحقيقة المكشوفة والمعروفة وتتفوق عليها. كذلك نجد ان بطاقاته الناعمة مغمسة بأريج الماورائية. وقرب هذه الصفحات سماء مؤلفها المعنوية. فهو يحلل نفسه. ويحدد وضع إبحاره الفلسفي ويقيم موضعه الأخلاقي والديني والعاطفي في نهاية الرحلة لدى وصوله إلى ميناء الملذات التي يوفرها له الحب الزنديق بعد أن يقضي على كل مبادئ الايمان والأخلاق المسيحية في روح عشيقته لدفعها إلى الزنى بصورة أبسط. «استيني» هي أولاً ملف انساني وفلسفي من الدرجة الأولى وهو يقذف فيها حزمة من الضوء والشعاع على مركز مربح استغل إلى أبعد الدرجات في «الكوميديا الانسانية» كما في ساروفيم الملاك الطاهر.

لا بد من الاشارة إلى الفترة التي عاشها بلزاك في مكتب الكاتب العام ١٨١٧ في مكتب كاتب عدل العام ١٨١٨ لأنه سيحيي أجواءها في عدة روايات وخصوصاً الكولونيل شابير (Colonel Chabert) «وبداية في الحياة» (Un début dans la vie). وسيستغل المؤلف ملاحظاته على

سماء الزبائن التي كان يقرأ فيها الانحطاط والبؤس، وعلى اخلاق الكتبة، وسير الاجراءات وجهاز العدالة وجلسات المحاكم...

نجد أن بذور أفضل نتاج بلزاك الأدبي، على الأقل، فيما خص وسائل الفن والتعبير في مؤلفاته الأولى التي تشكل مجموعة من اثنين وثلاثين مجلد صدرت في الفترة الممتدة بين العام ١٨٢١ والعام ١٨٢٤ تحت اسماء مستعـــارة مختلفـــة «لـورد رهـون» (Lord R'Hoone). «أوراس دو سان أو بـــــــــان» (Horace de Saint Aubin)، «فيلارجليه» (Villerglé)، (وقد صدرت تحت عنوان مؤلفات أوراس دو سان أو بان الكاملة لدى الناشر سوڤران. في الفترة الممتدة بين عام ١٨٣٦ وعام ١٨٤٠) وهي «وريشة بيراغ»، «جان لويس»، (الفتاة اللقيطة» (la fille trouvée) «كلوتيلـــــد دو لوزينيـــــان» (Clotilde de Lusignan) (اليهودي الجميل) (le beau Juif) «العيـــد المثوي» (اثنـــان من عـــائلـــة برلجيلت) (Les deux Beringheld) «كـــــــاهن الاردان» Le vicaire des Ardenne، «الخيبة الأخيرة» (la dernière fée) (المصـبـاح السـحـري الجديـد)، «انـيـات والمجرم»، ملحق لكاهن الاردان التي أعيد طبعها عام ١٨٣٦ تحت العنوان الأكثر شهرة (أرغو القرصان) «وان كلور» Wann Chlore التي أعيد طبعها تحت عنوان جان الشاحبة. ويطلقون عليها عادة اسم مؤلفات الشباب (œuvre de Jeunesse). كذلك سيمثل رفاقه

أصحاب المصنفات المختلفة المواضيع والذين لم يحققوا في غالبيتهم تطلعاتهم إلى الشهرة كنماذج في «الكوميديا الانسانية»؛ فينو (Fino) في (قيصر بيروتو)، لوستو في (ربة فن المقاطعة)، لوسيان دو رينبريه Lucien de Rubempré في (الأوهام الضائعة).

لقد أسرّ بلزاك إلى شانفلريه (Chamfleury) قولاً بات اليوم يعتبر تبجحاً من الماضي: «لقد كتبت سبعة روايات بسيطة كالدراسات، واحدة لا تعلم الحوار، والثانية لا تعلم الوصف، والثالثة لا تعلم الجمع بين الأبطال، والرابعة لا تعلم فن التأليف...» وتتيح هذه العبارة للنقاد، اعتبار هذه المحاولات تجارب والبحث للعثور على النموذج الذي يجهد الطالب بنقل بعض سبله التقنية. وقد تحقق من هذا الأمر ألبير بريو (Albert Prioult) في (بلزاك قبل «الكوميديا الانسانية» وموريس برداش (Maurice Bardèche) في (بلزاك الروائي) وقد سجل الأول بدقة أسماء كافة الكتاب الذين حاول الكاتب الشاب المبتدئ مجاراتهم ودون الثاني كافة أسرار طريقة الصنع التي اخذها عنهم حرفياً لاكتساب أسرار المهنة: لقد درس بلزاك الرواية واستفاد... إلى عهد قريب كانوا لا يتحدثون عن نتاج الشباب إلا لوضعه في أقل المرتبات وتعريته من كل أهمية وتجريده من كل قيمة أدبية إلا ان هذا الأمر لم يعد مقبولاً اليوم؛ فقد بدأ الشاب المندرج باختيار أساتذته وقد أعلن هذا فيما بعد على لسان «جوزيف بريدو» (Joseph Bridau) . في (معكرة المياه): «لقد كان يكثر من المطالعة ويوفر لنفسه هذه الثقافة العميقة الرصينة التي لا نكتسبها إلا

بأنفسنا ، هذه المعرفة التي ينهل منها كافة الموهوبين في الفترة المتراوحة بين العشرين والثلاثين من عمرهم». وفيما يلي بعض المراجع التي أشار إليهـــــا هو نفسه : بيرون (Byron) ، فنيمور كوبر (Fenimore Cooper) ، آن رادكليف (Anne Radcliffe) ، ماتيران (Maturin) ، وولتر سكوت (Walter Scott) (الذي سيكون تأثيره حاسماً وعميقاً) ، رابليه (Rabelais) ، موليير (Molière) ديدرو (Diderot) ، مونتسكيه (Montesquieu) ، لوك (Locke) ، جان جاك روسو (J.J. Rousseau) برناردين دو سان بيـار (Bernardin de Saint Pierre) ، بومارشيه (Beaumarchais) شاتو بريـــــان (Chateau Briand) ، دو كريــه – دومينيـــل (Ducray Duminil) ، بيجو لوبران (Pigout Lebrun)... كذلك تناولت قراءاته عدداً كبيراً من مؤلفات الكتاب المنسيين اليوم. وكان يحاول دائماً أن يضع مؤلفات على غرار هذه الفنون الأدبية المتنوعة كروايات المغامرات ذات الحبكة الغرامية ، والرواية التاريخية ، ورواية المغامرات والرواية العاطفية ، ورواية الرعب ، والرواية الخرافية ، والرواية المفزعة والرواية النهارية (التي تتحدث عن حياة المتشردين). وتوفر له احداها أو الأخرى مخطط مؤلف أدبي للتمرين وفكرة رئيسية قابلة للتقليد : المحاكاة الساخرة ، الحوار الضاحك أو المأساوي ، والوصف الخ ... ويعتبر «أرغو القرصان» (١٨٢٤) محاولة لكتابة رواية نفسية. ويمكن الأخذ به كدليل على التقدم الذي حققه في بناء الميزات والعقدة باللجوء إلى

الاهواء وليس إلى التقليد والتزييف الفاضحين. كذلك فهم شيئاً فشيئاً ان أفضل مصدر للروائي هو نفسه بعيداً عن كافة التقنيات. وكان يسكب تجاربه الشخصية ومفاهيمه في الحياة ومحيطه الخاص في الخليطة التي يقدمها له التقليد. لقد ألقى وسطه العائلي في الحلبة وافتتح به معرض الرسومات المكرسة لأصدقائه الموثوقين.

أطلق أحد سماسرة الأدب أوراس ريسون Horace Raisson عام ١٨٢٤ موضة المصطلحات الأدبية وقد استخدم في ذلك بلزاك الذي كان في بداية شهرته الأدبية فنشر عام ١٨٢٥ «مصطلحات المستقيمين» Code des gens honnêtes . وقد حث هذا النوع الهجائي قريحته ففندها في قوانين مختصرة. كما في المصطلحات القضائية، العادات والمحظورات الاجتماعية. ولما أصبحت أكثر حدة قوة ملاحظته، وصف بعناية عالم النفس الفيزيولوجي وفسر التفاصيل الخارجية للشخص والمواقف والملبس والأثاث واعتبرها إشارات وبيانات إيجابية عن الطبع الأخلاقي. فمنذ عام ١٨٢٢ باشر بلزاك قراءة ملف لافاتيه (Lavater) حول «فن معرفة الناس من خلال سحنتهم» وقد طبق مبادئه بقناعة إلى درجة لم يتردد معها في إيجاد تفسير واقعي متشائم بعض الشيء للحياة الاجتماعية التي تعتمد على المال في كل حركة، في كل ادعاء، في كل تعبير وجه. هذا فيما خص معنى الفكرة أما فيما خص معنى الشكل فان هذه الخطوط السريعة وهذه الأطياف البشرية تعلن عن عدة مراحل وعدة شخصيات من الكوميديا الإنسانية.

بعد المال أتى الحب. وفيزيولوجية الزواج التي صممت عام ١٨٢٤ وكتب نصفها عام ١٨٢٦ لن تظهر بشكلها النهائي إلا عام ١٨٢٩. وهي تعتبر نقداً «لاذعاً» للعادات المعاصرة له. إنها المأساة الأبدية التي تضرب ثلاثة أشخاص منذ ظهور الأفعى أمام الزوجين في عدن ورغم كثرة الاقتباس فيها، فان هذا الإنتاج يدهش بقوته في الملاحظة والتحليل. هذه القوة غير الشائعة لدى كل كاتب شاب. وأي تشاؤم في النظرة إلى الزواج نجد فيها، فقد تجاوزت السخرية الحدود وصبت ادعاءها في كلمات بطرة منمقة معسولة. مما أفقد المُؤلَف البعد المعنوي الذي أراد صاحبه إضفاءه عليه بتهزئته إلى حد التطرف هذه المؤسسة الجادة والمقدسة. أما من الناحية الأدبية فقد جاء هذا الكتاب مزيجاً كبيراً.

وبتنا نعرف الآن متى يجب أن ندرس مؤلفات الشباب ورموز المستقيمين. ذلك أن البدء بها هو تجربة مضرة ومخيبة للآمال. واذا رغب أحدهم بمتابعة تطور الفن والفكر لدى بلزاك فلا يسعه ذلك إلا إذا عاد إلى البعيد إلى مرحلة التجارب والتردد والتجارب المتكررة هذه.. لا بد له من الخروج من مرحلة الكوميديا الإنسانية الباهرة والتوغل في ظلمات البداية لنجد فيها هذه الصفحة أو تلك المليئة بالوعود السعيدة.

أهمل بلزاك في الفترة الممتدة بين عام ١٨٢٥ وعام ١٨٢٨ الأدب وانصرف إلى النشر والطباعة فقد كان يرغب في الإثراء السريع إلا أنه خرج من هذه المغامرة المأساوية محكوماً عليه بالبؤس

الفوري وبحياة مستقبلية – وهذا أسوأ ما في الأمر – مليئة بالتدابير المالية والحجج. ونلاحظ في هذه المناسبة قدرة الكاتب على إعادة توفير أجواء الشجون المحيطة به بغمس المغامرات الخيالية فيها.

لقد وضع رينيه بوفييه (René Bouvier) وإدوار مينيال (Edward Maynial) في حكايا بلزاك المأساوية (Les contes dramatiques de Balzac)، قصة هذا الإفلاس مفصلة والمشاكل التي خلفها لهذا الصناعي المتهور، ضحية قصوره المهني، وهي تبرز بوضوح شائبات ميزة تنزع بصورة طبيعية إلى الترف والتبذير.

لندرس آثار هذه النكبة التجارية على تاريخ عظمة وانهيار قيصربيروتو.

L'histoire de la grandeur et de la décadence de César Birotteau حيث استغل الكاتب خبرته التي اكتسبها كمتمرن في مكتب كاتب العدل واستفاد فيها من ذكرى محنته وقلقه حين كان يتخبط شرفه وشرف عائلته بين ابن العم سديو (Sédillot) المكلف بتصفية مطبعة بلزاك والمستحقين. ولا تفاجئنا دقة استعمال التعابير القانونية ولا معرفته بتطور مراحل هذه العملية القضائية ولا عمق تحليل نفسية المفلس، فهذا الضمير كان ضميره قبل أن يكون لبيروتو، لقد لاحقه هذا الشعور ومزقه الخوف من الغد والفزع من المرابين ورجال القانون والمدينين. وقد وفرت له تجاربه كناشر ومفلس ملفات سيستعملها أيضاً في الحظر (l'interdiction) مجلس

القدامى ، والأوهام الضائعة. وتتسم تأملاته بالصدق كذلك يقود تحليلاته النفسية بثقة كبيرة ما كان ليملكها لو لم يمر بهذه التجربة ، فهو يضع الحكايات دون أن يمكن القول أن شيطان الشعر الخلاق هو الذي يوجهه ويلهمه. إنه يسترجع ذكرياته ونحن نسترجعها معه وها قد بتنا المؤتمنين على أسراره.. وتصطبغ لذة القراءة بالجدية. وتثرى بالأحاسيس لأن أصداء شكواه ترتد من روحه إلى أرواحنا وتخرقها وتسبرها.

وهكذا نجد أن حقيقة السيرة الذاتية تختلط بالخيال في عدة روايات وتلهب الحبكات حساسية بلزاك وتحيي أجواء سعادته وآلامه في كافة مراحل حياته ويهب الأبطال بأسمائهم المستعارة من أحلامه بوجوههم المعروفة المحبوبة أو المكروهة. ونحن لا نحاول إخراجها من ظلمات السر والغموض لإشباع فضول البحاثة بل للشعور بلذة شهادة المعجزة الفنية الكامنة في التحول الأدبي:

توجب على بلزاك عام ١٨٢٨ الإهتمام بكسب حياته بعد أن زال خطر الإفلاس فالتفت إلى الأدب ليرتبط به بصورة نهائية. ويروج في ذلك الحين إعادة كتابة التاريخ ولم تكن محاولات بلزاك الأولى وريشة بيراغ (l'héritière de Birague) كلوتيلد دولوزينيان (Clotilde de Lusignan) (١٨٢٢) ناجحة وكان يقسو في الحكم عليها. خطر له الإنصراف إلى قراءة مذكرات الثورة وحربي ڤانديه (Vendée) فشغف بها والتهب خياله وجاءت رواية الثائر الملكي الأخير أو بريتانيا عام ١٧٩٩ ، والتي سماها فيما بعد

الثوار الملكيون ، التي اعتبرها الرواية الأولى الجديرة بالإنتساب إليه فوقعها .

ولم تعد معلومات الكتب تكفيه وقد ابتكر وسيلة التوثق التي سيلجأ إليها فيما بعد بذهابه إلى فوجير (Fougère) ليتشبع من الأجواء التي تدور فيها أحداث وحبكة الرواية التي يصفها . لقد باتت عيونه تحتاج إلى تأمل المناطق التي يريد وصفها ، وصارت أذناه تتوق إلى سماع أصوات الناس في محيطهم . لقد سألهم وجعلهم يتحدثون واستمع إليهم وجمع التعابير المستعملة في الناحية ولاحظ عادات الناس فيها فبات بوسعه إعادة بناء المأساة على حقيقتها في الطبيعة التي تتحول إلى شخصية أسطورية يستمد منها الأبطال دوافعهم ويتحدون معها في غليان مشاعرهم. لقد فهم ان لا شيء يضاهي كون المرء حقيقياً صادقاً فترك الواقعية الطبيعية تغزو وتجتاح كيانه بكامله قبل أن يطبعها بالشاعرية . لقد نزع من المخلوقات الحية أو الجامدة والأجواء المحيطة به حتى اللامرئية منها أسرارها ومعانيها وفاجأ الهمسات الغامضة التي تتخذها وسيلة للإتصال بفكر الإنسان ، وكاد يؤمن بالقيمة الحقيقية لهذا الترجمان الروحي ، فعلى كل مفترق طريق تبرز عبقرية بريتانيا وتنبجس متنبهة كنصير يشجع خطوات العاشقين مونتوران (Montauran) وماري دو فرنيل (Marie de Verneuil) . أو أنهما تخبئان وتلبدان خلف كل دغل (مجموعة من الجنبات البرية والمتداخلة الأغصان) ،صابرة كجاسوس يود إفساد مناوراتهم . ويرى البعض أن «كل» فينمور كوبر (Fenimore Cooper) كامن هنا ،

وخدع الثوار الملكيين هي تكرار لحيل الموهيكان (Mohicans) .

كـذلك يعلن بلزاك ويدل على كل والتر سكوت (Walter Scott) باتباعه حرفياً تعاليم استاذه. فقد عمل الروائي بدلاً من نقل شخصية عظيمة أوحدث تاريخي ضخم على تفسير الأسباب والعلل بصورة عامة بوصف عادات كل الناس وأفكار ذلك العصر.

لقد رسم بلزاك خطوطاً عريضة في خلفية لوحته وهذا بصورة واضحة يطلعنا على إيثاره السياسي. لقد اختطها باللون الأزرق أي الملكية الليبرالية العقائدية.. فنازعه البعض وساق دليلاً ضده لامبالاته فيما خص الدين رغم أنه في الوقت الذي كان يضع فيه مؤلفه في قصر فوجير (Fougères) لدى آل بومرول (Pommereul) كانت مناظراته الخطابية الملحدة مع مضيفته دلائل واضحة على فولتريته (تعلقه بفولتير وتحمسه له). ويعلن الآمر الشجاع هولو (Hulot) والكابتن ميرل (Merle) والرقيب جيرار (Gerard) «هذه النفوس المؤيدة للجمهورية بحق «المتفانية فعلاً» النزيهة القوية يعلنون عن هدف مهمتهم المزدوجة «إنقاذ العقائد والوطن» ومبدأ الحرية والغزوات من «المنطق الإنساني الذي أيقظته جمعياتنا العامة. وقد أنزل معتقدات الفلاحين الذي يستشهدون للدفاع عن كاثوليكيتهم إلى التيمية (عبادة الأشياء المسحورة) و «التعصب المظلم» و «التطير». لقد منح اليسوعي والموجه غودين (Gudin) نفساً جشعة طموحة متعصبة مفرطة في التضليل الماجن فجاءت صورة هزلية تبرز

أكثر بالمقارنة بالصورة الباهتة والكامدة التي مثل بها الكاهن الذي يصر على الحفاظ على العادات القديمة المتدينة رغم المخاطر.

ومارکيز مونتوران (Montauran) شجاع وكريم إلا ان تقلب هواه المجنون وانتصار حبه يؤدي إلى فشل القضية التي يدافع عنها. فهو ليس إلا دمية زائفة بالنسبة إلى القائد الحقيقي... وظهرت ميزات الآمر هولت (Hulot) هذا المواطن العظيم بمظهر الفخور المحبب. أما بقية الأنصار من النبلاء الطائشين فانهم يبدون كمدافعين تافهين عن التاج والمذبح. فهم يلجون على رئيسهم ليزكيهم إلى الملك ولا يحلمون إلا بالمناصب والمغانم والأوسمة الرفيعة والإمتيازات.

وتبدو النكات الماجنة التي يطلقها الكونت بوفان (Beauvan) أمام المذبح خلال قداس تكليل مونتوران (Montauran) وماري فرنويل (Verneuil) كريهة تخرق القدسيات في مثل هذه اللحظات الرزينة القريبة من الله وجه الحق. وأكثر المشاهد إيحاء وأكثرها دلالة في الرواية هي قداس «الثوار الملكيون» الذي يعقد ليلاً في فرجة غابة ويشبه بلزاك هؤلاء الفلاحين الجاثين بأسلحتهم أمام هوستي (Hostie) بالمتوحشين الفظين الراكعين أمام تيميتهم (كل فينيمور كوبر)(tout Fenimore Cooper) فهم لم يكونوا يشكلون بالنسبة إليه إلا حدثاً وليس نظاماً وكانت العبادة صلاة ولم تكن تديناً. وهو يرى أن هذا الاحتفال المقدس بانه ملهاة تهدف بنظر منظميها الذين انتهكوا الإكليروس وفضلوا عليه المصالح السياسية «إلى تحريك أهواء النفوس الفظة». لقد تحول صليب المسيح المسالم إلى اداة

حرب. وهنا يطلب من الأجواء التاريخية تفسير الحدث حيث يشوهه الروائي بتضخيم الشوائب وتجسيمها ويحرفه بحصر البعد السماوي للمأساة الخارقة بالأرض، فهو لا يتأمل منها إلا زخرفتها ولا يسند إلى الثورة الملكية البطولة الرائعة والعنيدة إلى الإيمان الجموح لعدم تعاطفه معها.

حين أعاد بلزاك قراءة رواية «الثوار الملكيون» بعد عدة سنوات نقل إنطباعه إلى السيدة هانسكا (Hanska) «انها قصيدة رائعة، رفيعة الأهواء جليلتها، وصفت فيها المنطقة والحرب باتقان وسعادة فاجأتني.! المنطقة والحرب هي ظاهر المأساة، والأهواء السامية هي الحافز السري، إنها شغف بلزاك بالسيدة برني (Berny) أولاً في الطبعة الأصلية ثم بالسيدة هانسكا في طبعة عام ١٨٣٤ وقد أدخل عليها التعديلات. «البطلة ماري تتمتع بالسحر والجاذبية والحظوة وحتى بالعفاف العذري. «وهذا التغيير الجريء للمخلوقة الساقطة السافلة والجاسوسة المستترة والعاشقة العظيمة، يظهر ميول الشاب الباحث عن السعادة الهائمة، واضطرابات حبه الأول. وكان بلزاك يمنح أبطاله كل الجاذبية التي يراها ويحلم بها في ظل وجه المحبة ثم الغريبة... كانت قصيدة أفراحه الحميمة، كذلك كانت التحام كل محاولاته الأدبية السعيد. فالمادة التاريخية التي منحتها له بريتانيا والثورة الملكية قد أتاحت له استعمال الجناس والتطابق في الوصف والأفكار والميزات.. كما كانت كل شخصية تمثل نموذجاً وتعبر عن طبقتها الاجتماعية. فونتوران (Montauran) الشاب الأنيق الشجاع يعطي

صورة جميلة عن الطبقة النبيلة الفرنسية ، وغودين الكاهن المتعصب يعطي صورة عن رجال الدين في هذه المناطق ، الآمر هولو (Hulot) الجندي العجوز ذا الوجـه العبوس يعطي صورة حبه عن هذه الجمهورية . فمثل الثوار الملكيون التي تدل كنيتها على أصولها الشعبية مثل غالوب شوبين (Galope Chopine) بيل ميشي (Pille-Miche) وخصوصاً مارش أتير (Marche-à-terre) الفلاحين المترمتين بصورة خاصة . وكاد هذا النهج أن يتحول إلى قاعدة مستقرة كإحياء الطبيعة. أخيراً لجد أن كل شيء كان يعج بالشباب ، تدفق الأسلوب ، الكلمات الملونة ، اللوحات المتفوقة الرسم ، التصريحات الساذجة أحياناً والآراء ذات الإدعاءات الفلسفية أو المعقدة .

في نفس الوقت كان بلزاك ، يفتتح الرواية البوليسية فقد أعد فوشيه (Fouchet) مؤآمرة وأرسل إلى الجاسوسة أحد عماله كورانتان المراوغ الذي سيدفع إلى إعتقال غا (gas) قائد الثوار الملكيين. وكان بلزاك يقدم بهذا للفصول التي سنراها فيما بعد في الفندق الأحمر (l'auberge rouge) المستـــــــــــــدعي (la requisitionnaire) قصة غـــــــــامضة (une tenèbreuse affaire) عظمـــة وبـؤس العـــاهرات (Splendeurs et Misères des Courtisanes) الـوجه الآخر للتاريخ المعاصر...

لقـد أهـديت روايـة الثوار الملكيون إلى تيودور دابلن

(théodore Dablin) بكلمات تنم عن الفخر، «أهدي إلى الصديق الأول أول نتاج» وكان من الأفضل القول آخر نتاج مرحلة الشباب، فقد ساهمت بقية المؤلفات بتقديماتها في إثراء التحفة، تحفة العطاء. فقد دلت بألوانها المتعددة عن موهبة فذة واثقة من قوتها ومصادرها.

- ٣ -

منهاج الملاحظة والتوثيق

لم تحقق رواية «الثوار الملكيون» التي ظهرت في شهر كانون الثاني من عام ١٨٢٩ الا نصف نجاح، ولكنها فتحت باب الشهرة التي تكاثفت بصمت مع «فيزيولوجية الزواج» التي حققت نكاتها اللاسعة وتأملاتها الماجنة نجاحاً «صاخباً» لبلزاك في الصالونات الاجتماعية.

وقد كسب له في نيسان ١٨٣٠ مجلد فصول من الحياة الخاصة. Scènes de la vie privée وهي سلسلة من القصص الواعظة ذات رقة مؤثرة معدة للنفوس الشابة. للفتيات كربات الأسرة لتجنبهن سكب «دموع الدم» الجمهور النسائي بصورة نهائية. خصوصاً وأن «الفيزيولوجية» كانت قد أثارت فضولهن وهيجت دوامة واسعة. فانطلقت شهرة الكاتب تفرز بينهن وتدعمها الحجج القوية. وقد جاءت رواية غشاء الكآبة عام ١٨٣١ وهي مؤلف ظرفي وعبارة عن نقد واسع ولاذع للأخلاق المعاصرة بفضيحة جديدة متوجة بانتصار أدبي حقيقي.

عام ١٨٣٢ كان بلزاك الكاتب المشهور الذي تفخر سيدات القصور باستقباله في محافلهن ويعتز مدير المجلات والصحف في

إصدار رواياته في موجزاتهم وكانت الطلبات والمواضيع تنهمر عليه. وقد أصبح عشيقاً للدوقة دابرانتيس (D'Abrantes) يرتاد صالون السيدة ريكامييه (Récamier) ويلتقي فيه مع الأميرة باغراتيون (Bagration) والكونتيسه غيدوبوني منيسكونتي (Guidoboni Visconti) والكونتيسه ميرلين (Merlin) والسيدة جيراردين (Girardin) والسيدة هاملين (Hamelin) والكونتيسة أغو (Agoult) والماركيزة فيتزجليمي (Fitz James). لقد أعتبر بلزاك أن الهالة الارستقراطية فتنة انسانية لا تقاوم ولوحظ عليه هذا الأمر بسرعة فقد كان غالباً «ما يشاهد ملازما» للسيدة دوكاستري (de Castries) الرائعة الجمال راعية القيم الأدبية التي تحيط بها أسطورة من الحب الحزين واللاجئة الى الملذات الفكرية. وقد أثار الألم الذي يرتسم قلب الكاتب الشاب الفخور إلا أن المغامرة انتهت على شكل مزعج بعد عدة أشهر. وقد انتقم العاشق المبعد لقلبه المجروح فجسد في دوقة لانجيه (١٨٣٣) (La duchesse de Langeais) الغنج الماهر في التخطيط والفتنة المتحذلقة، والمناورات الماكرة التي كانت تمارسها سيدة متهورة في ضاحية سان جيرمين (Saint Germain)، لقد تحول بائس القلم من أجلها فتأنق ووفر حياة مترفة باذلاً جهوداً مضنية، وانتسب من أجل ابتساماتها الى حزب هذه الجماعة «حزب الشرعية الجديد» متحدياً لوم أفضل صديقتين السيدة برني وزلمي كارو العنيف. ولا بد من التذكير أيضاً «أنه كان يعرف كيف يدير الحادثة فيجلب

اللذة ويوفر التسلية المرهقة التي كان يعتبرها أحد الأجناس الأدبية (دراسة مختلفة عن المرأة) (Autre étude de femme) ، عينة من المحادثات الفرنسية(Echantillon de Causeries françaises) ، محادثات بين الساعة الحادية عشرة ومنتصف الليل.

Conversation entre Onze heures et minuit.

لقد جعلت منه قريحته المطلقة العنان وبريق عينيه الجذاب ذات اللمعان الذهبي كما يقول تيوفيل غوتيه (Théophile Gautier) وإيمائيتـه وحركاته المعبرة وخياله كلها جعلت منه محدثاً ساحراً وكان يعرف كيف يكون مستمعاً متنبهاً أيضاً.

لقد أصدر بلزاك كافة مؤلفاته عام ١٨٤٣ تحت عنوان عام هو دراسة العـــادات (Etude des Mœurs) وضعها في فئات فصول من الحياة الخاصة، فصول من حياة الريف، فصول من الحياة الباريسية، فصول من الحياة السياسية فصول من الحياة العسكرية. وقد قدم فيليكس دافان لها (Félix Davin).

واعترف بلزاك بأن صديقه قد قدم للوثائق وألهمها. وقد تحمل مسؤولية كافة الآراء الواردة في هذا البيان الذي راجعه بدقة وأعاد تصحيحه فقد جعل من نفسه مراقباً ثانياً وعميقاً «يراقب الطبيعة» ويدرسها بحذر كبير. وكان شعاره أن يرى كل شيء كل شيء ولا يغفل شيئاً. وهو يتحدى أياً كان بأن ينال من دقته في هذه الدراسة للتفاصيل ودقائق الأمور ويعتمد على وسائل مأخوذة من رواياته ليرفض اعتراضات الآخرين بصورة مسبقة أليس من الخطأ الاعتقاد

بوجود مثل هذه التجربة لدى مثل هذا الشاب؟ هل كان الوقت يعوزه؟ كلا فلا بد لبلزاك من العمل وفق حدسه.

فقد كان الفريقان يتجابهان بصورة دائمة. البعض مثل شامفلوري (Champ fleury) ومن بعده كافة الرومنسيين الواقعيين المنتمين الى مدرســة إميــل زولا (Emile Zola) هؤلاء الذين سموا أتباع بلزاك كان يعتبره باحثاً عن الملفات، ومتقصياً مجداً لا يعرف الكلل طريقه الى قلبه، ومنقباً لا يرتوي ومرشداً. والنكات المروية عن أعماله وخطواته كثيرة لا تنضب. وقد كان يدون ملاحظاته على مفكرات صغيرة لا يتركها أبداً. وعمل على تغذية نتاجه بكافة الملاحظات التي جمعها بفضول ملتهب. والبعض الآخر مثل فيلاريت شال (Philarète Chasles) دينواريتير (Desnoiresterres) كان يجد في بلزاك متكهناً، مدركاً بالحدس، بصاراً. من كان سيتحيز للواقعي أمام سانت بوف (Sainte Beuve) كما فعل كل من تيوفيل غوتييه (Th. Gautier) وادمون غونكور (Ed. de Goncourt) خلال حفلة عشاء لدى آل مايني (Magny) العام ١٨٦٣ كان سيحصل على الجواب التالي: «هذا خيال، هذه اختراعات». استمعوا الى تأويل وشرح حديث لـ «ليون إميري» (Léon Emery) : «يدعون أن بلزاك كان مراقباً دقيق الملاحظة. أين له الوقت الكافي لذلك؟ أين هي ملاحظاته؟ هل تفاخر وتباهى بنقل ما رأى؟ ألا يتحدّث دائماً عن كتبه وكأنها من بنات خياله؟». وبعد تأكيد ماكس نورد (Max Nordau)

الحاسم « لم يستفد نتاجه بشيء من الملاحظة ... فالواقع لم يكن قائماً بالنسبة إليه »، يبدو رأي أندريه بلسور (André Bellesort) موفقاً : « هل راقب كافة الأمور التي يحكي عنها ... أنت لا تصدق ذلك ... لقد كان بلزاك يملك من الحدس أكثر مما يملك من دقة الملاحظة ». إنها الصفة المناسبة بنظرنا لأنها تقبل بالحدود ، إلا أنها غير وافية لأنها لا تميز المراحل الزمنية . وسيأتي اليوم الذي سيركن فيه الفنان ، بعد تحرره من كل عبودية الى خصب خصب عبقريته وحدها . « إنني أحمل مجتمعاً كاملاً في أفكاري ».

وتقضي هـذه الفرضية على التأكيدات المناهضة لبلزاك . فليس من الضروري البحث طويلاً في بعض روايات الكوميديا الإنسانية المنتقاة عشوائياً لإبراز عادات المؤلف ، والكلمة ، والموضوع . « تتوفر مادة واسعة ، وهي معروضة على هؤلاء الذين يودون مراقبة أو رسم مختلف المناطق الاجتماعية ... » (دراسة مختلفة عن المرأة) . « ترتبط أحداث الحياة الانسانية العامة أو الخاصة بصورة حميمة بالهندسة . حتى أنه يمكن لأغلب المراقبين إعادة تشييد الأمم والأفراد في أصدق عاداتهم مستندين الى آثار أبنيتهم العامة ومعتمدين على دراسة بقايا منازلهم » . (البحث عن المطلق) . « لا بد لمنع النقاد من الإسراع بالحكم بالطيش والدمغ به من الإشارة الى ... » « يلقى الباحث نفس السخرية في كافة مراحل المجتمع ... ولعل الباحث يفهم الحقيقة حين يقارن عمق الدعاية الرائجة بكل مراتبها انطلاقاً من

السوق في باريس وصولاً الى الاقطاعي... وأورد هذه الملاحظة لعل البعض يفهم...» إن هذه الجمل والعبارات مأخوذة من نفس الفقرة. (دوقة لانجيه). لقد وضع بلزاك في (السيدة فيرمياني) وسط الاحداث «عجوزاً» ينتمي إلى فئة المراقبين الباحثين. ويمكننا أن نكرر هذه التجربة في (الكوميديا الانسانية فنجد أن بلزاك ينتمي الى نفس هذه الفئة. لنعد عامين الى الوراء الى العام ١٨٣٠، الى بداية رحلته في التأليف، ولنتصفح مجموعة) (النتاج المتنوع Œuvres diverses). هل يريد أن يستريح بعد عناء عمل طويل ومتواصل استمر عدة ساعات؟ «إنني انصرف» حينذاك «الى التسلية التي تمنحني إياها الطبيعة في الخارج» و «توغل نظراتي يمنة ويسرة لدى جيراني. وأبدأ بالمراقبة...» هكذا تستهل رواية (البطال والمجتهد l'oisif et le travailleur وقبل أن ننتهي نبرز إحدى ملاحظات فيليكس دافان بأنه يعطي «الحياة للملاحظات لافاتيه (Lavater) بتطبيقها». ونقتنع بذلك عند قراءة (الفزيولوجية الذواقية la physiologie gastronomique). فهو يبدأ هذه الرواية بايراد ملاحظات حول هذا العلم المفيد. والعميق. واللذيذ، الذي اكتشفه لافاتيه وغال Gall ». فحين يطبق نظرياتهما للتمييز بين مختلف أنواع الذواقة ومباشرة «التفتيش المتروي عن سيماتهم وهيئتهم وحركاتهم رغبة منه في تحليل كل ملاحظتهم» يعلن

بلزاك وقد أضاف الى عمره عشر سنوات «منذ أربعين سنة وأنا أراقب الآكلين» وقد وصف هذا في (الفندق الأحمر). إنه يراقب أينما كان ، في الطرق ، في العربة ، في الكوخ ، في الصالونات وفي الكنائس ، خلال الليل والنهار فهو يريد كشف الاسرار المختبئة وراء ستائر المنازل». ويعدد لنا كافة الاسرار ويأتمننا عليها. فهو يلاحظ كل ما يفلت من النظرات اللامبالية والعيون اللامكترثة. ويعرض علينا نتائج تقصياته في (البقال l'épicier) و(السيدة توتانديو (Madame Toutendieu و(غابة بولونيا) (Le bois de Boulogne) (من حياة القصر) (de la vie de château)، (الاستشارة) (la Consultation) (الشهباء) (La Grisette)، (يوم الأحد) (Le Dimanche)، (حياة في العالم الكبير) Une vie di grand monde)، (الساعات الحية) (Les Horloges Vivantes)، الخ.. وهذه الأسماء موحية بحد ذاتها.. فهي تنقلنا في كافة دوائر مجتمع عام ١٨٣٠. وهي كلها من الأشياء المرئية.

وكان يعلق عليها أهمية تساوي تلك التي كان يدعي إكتسابها منها. ويأخذ في عقد الزواج على بول ما نر فيل (Paul de Mannerville عدم قدرته على «اكتشاف في موقف وسحنة وأقوال وتصرفات «خطيبته» الظواهر التي تدل على أكمة النقائص والعيوب التي تدخل في سمائها، ككل كائن انساني»، وكان يتوجب لذلك على بول «أن يملك ليس فقط علوم لافاتيه وغال بل أن يطلع أيضاً

على عـــلم بلا مذاهب مجمعة ، علم المراقب الفردي الذي يتطلب معرفة شبه شاملة». ثم يكشف ماذا كان بوسع إنسان حاذق باستعمال مبضع التحليل أن يستشف لدى ناتالي. الا أن ناتالي شخصية خيالية ، وهي تدين بخطوطها البيانية المميزة الى استقصاء الكاتب الذي يدعي كشف أعماق النفس ، وإنعكاساتها على قسمات الوجه ومنحنيات الطيف وبنيته. ونستدل على هذا من الملاحظة القائلة أن أكثر المراقبين تمرساً يمكنه أن يتنبأ. ويلاحظ إشارات أساسية حيث لا يلحظ الآخرون وجود شيء خارق. وتضم (سارازين) (Sarrasine) و (الفــندق الأحمر ملاحظات مشابهة.

هل من يعقل القول أن هذه التأكيدات المكررة ، التي أوردنا منها بعض العينات العشوائية ، تهدف إلى الاستخفاف بالقارئ فقط ؟ ان بلزاك يستأثر به اهتمام واحد الا وهو أن يرى كل شيء ، وأن يسجله لوصف الطبيعة والأشياء والناس كل هذا بهدف اظهار أسرار حياة ثانية أكثر سرية.

والآن لننظر إليه كيف يعيش. لقد كان يدعي أن قوة ملاحظته استعداد طبيعي دعمته التجربة «النفوس المهملة والفقراء هم وحدهم الذين يجيدون المراقبة.. أنهم يعرفون كيف يراقبون لأن كافة الأمور تصدمهم» المراقبة وليدة المعاناة. فالذاكرة لا تسجل جيداً إلا الألم. «ويتعلق هذا السر الذي أدلى به إلى السيدة هانسكا (١٨٣٣) بتدرجه في العالم حيث شعر بالمهانة. فهو لم يكن يتردد في اعتبار حياته المستمرة» «سر ما يسمونه خطأ موهبتي». وكان يشكو من

الإهمال الروحي الذي عانى منه في طفولته بسبب والدته. ويبارك هذه اللامبالاة التي عودته منذ الصغر على إيجاد لذة في الوحدة، و «مراقبة الحشرات» و «النظر إلى لجمة بشغف فضولي» يرده الى «حزنه المبكر» (الزنبق في الوادي). أليس بوسعنا أن نأخذ حرفياً. بهذا الاسترجاع لذكريات الطفولة: «من لم يتتبع في حياته خطوات نملة، من لم يملأ بالقش الفتحة الوحيدة التي تتنفس من خلالها البزاقة الشقراء؟ من لم يراقب غنج آنسة خافتة الصوت؟ من لم يتطلع طويلاً ويتلذذ برؤية آثار الشمس والأمطار على سقف من القرميد الأحمر؟ من لم يتأمل نقط الندى وأوراق الأزهار بتقاطع كؤوسها المختلفة؟» (غشـاء الكآبة). مثل رفائيل فالنتين (Raphaël Valentin) وفليكس فاندنيس (Félix de Vandenesse) يتأقلم الطفل الملعون بسرعة منذ سنواته الأولى مع ظواهر الطبيعة وتقلب السماء ويراقب كل شيء «إبتداء من قشة العشب حتى النجوم المتسكعة» (الطفل الملعون). كان بلزاك يترجم عبر كل شخصية ويعبر عن مظهر عميق من سماته «حياة الطفولة، الحياة الكسولة» ويضيف «الحياة المتوحشة» فنكاد نظن أنه كان يفكر بقراءاته كمراهق في (القراءات التقوية) هذه القراءات التي غذت أحلامه. وقد وحد أجواء «الغابات البدائية» في (آخر موهيكان) (Le dernier des Mohicans) لفنيمور كوبر (Fenimore Cooper).

لقد أمضى بلزاك حياتـه باثراء ذاكـرتـه بالملاحظات. ومن الخطأ الاعتقاد أنه كان ينكب طوال الليل على عمله ليقضي ساعات

النهار نائماً متعباً. صحيح أنه كان يجتاز مراحل من العمل المرهق وتنتابه فورات من الرغبة في الوحدة المطلقة فيعتزل عالم الأحياء ويتفرغ لأشباح خياله يضمها إلى مؤلفاته ويلحقها بها. الا أنه فيما عدا ذلك كان يسعد بلقاء أصدقائه ويرتاح أمام طبق شهي وينطلق على سجيته في الأحاديث ويفرح بالتجوال عبر العالم. لنتذكر فقط نزهاته التي لا تنتهي عبر باريس برفقة ليون غوزلان (Léon Gozlan) بحثاً عن إسم يصف إحدى شخصياته ليلقاه في لافتة محل، إسم مرصود، معد له كاسم ماركا (Marcas). وهو يشير في كل لحظة الى سحنة ونماذج المارة الذين تلمحهم عينه المترقبة في الشوارع والطرق. لنفكر بالأوساط المتباينة المتنوعة التي التقاها في رحلاته من باريس إلى روما، إلى تورين، إلى ميلانو، إلى البندقية، إلى سان بترسبورغ إلى فيينا، إلى برلين الخ.. لقد أخذ بلزاك شخصيات الأجانب من رجال ونساء، والتي وضعها في الكوميديا الانسانية من الطبيعة، أضف أنه كان يتردد على السفارات ويقيم علاقات مع عدة جاليات أجنبية في باريس.

لقد تحول النهج الذي استهله في رواية «الثوار الملكيون» وأصبح قاعدته الأساسية في التأليف فبات يحرص على زيارة المناطق التي يريد إدارة أحداث قصته فيها إن لم يكن قد زارها وتفحصها بدقة من قبل. وهذا ما جرى «للألنسون» (Alençon) في (الفتاة العانس) وفي (مجلس القدامى)، و«لبايو» (Bayeux) في (عائلة مزدوجة) وفي (الزوجة المهجورة) (femme abandonnée)

ولـ «غيراند» (Guérande) في (بياتريكس) ولـ«كروازيك» في (مأساة على ضفاف البحر Un drame au bord de la mer كذلك وصف «تور» و«تورين» في (الزنبق في الوادي) و (جعبة القنابل) و (كاهن تور) و (إمرأة الثلاثين) و «سومور» في (أوجيني غراندية) و «انجوليم» في (الأوهام الضائعة)، «اسودون» في (معكرة المياه) «ليموج» في (كاهن القرية) «سانسير» في (ربة فن المقاطعة) «نيمور» في اورسول ميرويه «بزنسون» في (ألبير سافاروس) «فوريب» (Voreppe) في (طبيب الريف)... وقد بين بعض البحاثة والمنقبين وعلماء الآثار مثل كونتاد (Contade) في ألنسون (Alençon) وإتيان أوبري (Etienne Aubrée) في فوجير (Fougères)، موريس سرفال (Maurice Serval) وألبير أرو (Albert Arrault) و.ج.أ. ويلن (J.E. Weelen) في تور (Tours) وتورين (Touraine) فراي فورنييه (Fray-Fournier) في ليموج. وتأكدوا من صحة ودقة الوصف الوارد في هذه القصص، وصف الموقع والأبنية والمنازل والطرق، فوجدوا أنه غالباً ما جاء كاملاً ومعبراً ورأوا أنه يعطي الشعور بالحقيقة وان ابتعد به الخيال عن الواقع. إن مؤلفات بلزاك هي ألبوم من الرسوم، ألبوم جمعت فيه المناظر الحقيقية التي سلبت عليه لبه وتلونت ببعض من نفسه المرتعشة. لم يكن ليكتفي بتسجيل رواه وآثارها على حساسيته بل كان يستوقف المارة يسألهم عن تفاصيل دقيقة ليضع مخططه.

لم يكن يدرس فقط المناطق بل كان يتزود بالمعلومات حول العصور التاريخية ويتوثق بالمستندات العلمية حول القضايا العلمية التي يود معالجتها. كان يستعلم ويستخبر ويستجوب الناس الذين عاشوا في ظل النظام القديم كصديقه دو فيله (de Villers) رئيس دير كور (Cour) السابق، والمسؤول عن كنيسة الكونت أرتوا (Comte d'Aratois) الخاصة، ووالدة السّيدة برني (Mme de Berny) وصيفة الملكة ماري أنطوانيت، أو هؤلاء الذين عاشوا في ظل الامبراطورية كالدوقة أبرنتيس (duchesse d'Abrantès) الخ...

وحين رغب في عرض النظريات الموسيقية في ماسيميلادوني (Massimila Đoni)، عرف وهو هاوي الموسيقى أن ذوقه لا يكفي فطلب من موسيقي ألماني عجوز ان يعزف له موس (Moise) لروسيني (Rossini) مراراً وتكراراً ليستوضحه أموراً غابت عنه فيتمكن بهذه الطريقة أن يورد في روايته تحليلاً طويلاً ودقيقاً. لهذه الأوبرا. وحين أحب وصف أجواء السجن وابراز عادات المجرمين ورجال الأمن ونقل أحاديثهم لم يكتف بمذكرات فيدوك (Mémoires de Vidocq) بل اتصل مباشرة بفيدوك المحكوم بالأشغال الشاقة الذي تحول الى مدير للأمن وأجرى معه محادثات وأخذ منها الكثير من المعلومات واستنتج منها الكثير من الانطباعات التي سيستغلها في الأب غوريو (Père Goriot) حيث يتسم جاك كولين (Jacques Colin) الملقب بفوترين

(Vautrin). بشخصية نموذجه القوية والفريدة كما يقدمها لنا ليون غوزلان (Léon Gozlan) في كتابه (بلزاك في منزله (Balzac chez lui)...

أكثر الروائي من لقاء المحكوم السابق بالأشغال الشاقة ودعاه الى طاولته في الجـــــاردي (les Jardies) واستمع اليه وهو ينصحه بالاستناد الى «الواقع» ويحكي مغامراته ويصف حياة السجناء الكريهة، ليعود فـــرابيـــــش (Farrabesche) ويرويها بدوره في كاهن القـــريـــــة (le Curé de Village). كذلك ستشكل الأشغال الشاقة والسجون والتحقيقات والقوانين الجزائية الأجواء الفظيعة والكئيبة والشريرة التي تحيط برواية «تجسد فوترين الأخير» (La dernière incarnation de Vautrin) (الجزء الرابع من بهاء وبؤس العاهرات) (Splendeurs et misères des courtisanes).

ويعطينا أرغة (لغة العامة) طبقة اللصوص، من مجرمين وسارقين، كل نكهته وصوره الخشنة والمبتكرة والقاسية. فبيبي لوبين (Bibi Lupin) رئيـــــس قـــوات الأمن والشرطي لوشار (Louchard) وكـــونتونـــــسون (Contenson) وبـــــيراد (Peyrade) وكـــورانتـــــان (Corentin) هي نماذج متفاوتة الدقة عن رئيس فيدوك (Vidocq).

أتاح تطبيق نفس المنهج الاستخباري لبلزاك وصف وقائع

عسكرية ، سواء بصورة منعزلة الفرديغو (El Verdugo) الـــوداع (Adieu) ، أو بإدمـاجهـا في روايـات «آل مـارانـا (Les Marana) وطــــبــيب الـــريف (*le Médecin de Campagne) «وقضـيـة قـاتمة» (Une ténébreuse affaire

كان بلزاك يلتقي أثناء زيارته لعائلة كـــارو (Carraud) حيث الزوج هو أستـــــاذ في مـــــدرسة سان سير (Saint-Cyr) – بـضبـــاط الجيوش الامبراطورية السابقين كالضابط بـريــولا (Periolas) الذي كان يروي لهم مغامراته ، والجنرال بــومـــرول (Ponmereul) الذي كان يحكي لهم فكاهاته .

وكان بلزاك يدون كل هذه الأمور ويسجل التفاصيل المؤثرة والمذهلة . ونحن نجد آثارها من أفكار ومواضيع ، ومقتطفات ، في ألبومه . وهناك حوادث تدل بصورة أفضل على السعادة التي كانت تمتلكه وهو يعوض عن النقص في روآه الشخصية . ففي عام ١٨٣٢ أقام بعض الوقت لدى آل كـــــارو (les Carraud) القاطنين في مصنع بارود انـــغولـــيم (Angoulême) حيث كان الأصدقاء يأتون لرؤية الكاتب الشهير ، والاستماع اليه وكان أحد هؤلاء المفوض غـــران بـــزانسـون (Grand Besançon) قد قام برحلات كثيرة زار خلالها بلاد الهند وماليزيا وقد استجوبه بلزاك بنهم وعرف كيف يستمد منه عناصر مقال طويل نشر في مجلة

بـــاريــــــس (la Revue de Paris) تحت عنوان «رحلة من باريس إلى جـــاوة (Voyage de Paris à Java) مقال باهر بروحه، مليء بالقريحة، رغم أن رسم المواقع وعادات السكان المحليين تتسم بالألوان الحقيقية التي تذكرنا بالغرابة الرومنسية والفكرة التي يكونها أناس عام ١٨٣٠ عن هذه الجزر البعيدة والرائعة. كذلك لم يرَ بلزاك أبداً الزقـــاق البحـــري (Fiord) ولكنه وصفه في «سيرافيتا – ١٨٣٥» (Séraphita 1835) بدقة رضي عنها النروجيون.

الا يمكننا الاعتقاد أنه فكّر منذ عام ١٨٣٠ برواية قصة في أجواء شماليـــة حين اقترح ذلك على الكـونتيسة أو لتروماان (Contesse d'Oultremont) في مقــالــه «دُرّجَةُ الآداب»: «يمكنني الإشارة عليك بدراسة ألوان لبونيا المحلية لتصوري لنا قمة جبلية بثلوجها الطبيعية وفجراً شمالياً. لم يسبق لك أن رأيته، والرنة (حيوان لبون) والحسكة، وزيت الحوت وآفاق الثلج والدبب البيضاء والخراز..»

ولا يمكننا أن نذكر كل الدلائل على العناية التي جمع بها هذه الوثائق حتى بالنسبة للأمور الصغيرة. فنحن نجد أن بلزاك يدرس العلوم بنفسه كما فعل بالنسبة للكيمياء في «البحث عن المطلق» (La recherche de l'absolu) و النظريات السويدية في سيرافيتـــــا (Séraphita) والنظريات المغنطيسية والمسمرية في أورسول ميروريـــــة (Ursule Mirouêt) وغيرها قبل أن يجعل

أبطاله يناقشونها أو يعيشونها. وهو غالباً لا يستطيع أن يمنع نفسه من إبداء رأيه. لقد كان يحصل على معلوماته من أصحاب الاختصاص ويجهد لاستيعاب المادة العلمية.

تدور القضية التي طرحها النقّاد بعنف حول القيمة التاريخية للكوميديا الانسانية (la Comédie Humaine)، فاذا كان الجميع متفقاً على اعتبار هذا النتاج الأدبي لوحة، حية جميلة، فان بعض المفسرين يتساءلون عن مدى دقته وتوافقه مع الواقع. وإذا كان هذا المؤلف يحكي كما يدعي بلزاك «قصة المجتمع العامل» «قصة فرنسا القرن التاسع عشر الكاملة» ويشكل لوحة المجتمع المأخوذة عن الواقع بكل حسناته وسيئاته، فان برونتيير (Brunetière) لا يتردد في الموافقة. كما لا يتأخر تين (Taine) وألبير سوريل (Albert Sorel) عن اعتبار بلزاك مؤرخ عصره. فالكوميديا الانسانية (la Comédie humaine) تورد كل تطورات الحياة السياسية والاجتماعية من عام ١٧٨٩ إلى عام ١٨٤٨: الثورة الملكية، والاضطرابات الثورية. والأبهة الامبراطورية.. غباوة وعناد الطبقة الارستقراطية بعد عودة الملكية. لقد راقب بلزاك نشوء القوى المالية، وصعود البورجوازية، وانتهازية بعض رجال السياسة وتزايد أهمية رجال الأعمال وانهيار طبقة النبلاء المتحجرة في ندمها العقيم، وانتصار التطلعات الديمقراطية وتوثب طبقة رجال الدين الاجتماعي بقيادة لامنيه (Lamenais) ومشاريع السيمونية (بيع وشراء

الأشياء الروحية) الجريئة، والصدمات التي هزت كافة الطبقات الاجتماعية وبدلت مظاهرها في عهد ثورة تموز وفي ظل حكم لويس فيليب (Louis Philippe) وسردهـا بدقة ووصفها في الكـوميديـا الانسـانيـة (La Comédie humaine) ودرس أسبابها وآثارها العامة والخاصة.

كذلك اهتم بلزاك بالرجال الذين صنعوا الأحداث فذكر عدداً كبيراً من أسماء هؤلاء الذين برزوا لدورهم السياسي أو لتفهمهم للحاجات الآنية أو لنفوذهم العلمي أو الفلسفي أو الأدبي أو الفني. كذلك أشار إلى بعضهم تحت أسماء مستعارة، وعلينا الا نتوقف عند عبثية محاولات تحديد هؤلاء الأشخاص فهي ولا شك تتيح ترسيخ حكم بلزاك على الفئات الاجتماعية التي يمتلكها هؤلاء الأشخاص.

لنتوقف عند وصف الطبقة الأرستقراطية في فوبور سان جيرمان (Faubourg Saint Germain) التي ما زالت صحتها موضع نقاش حتى اليوم. فقد كان سانت بوف (Sainte Beuve) يتهجم على بلزاك بعنف «هناك بعض العبقرية وبعض الاختراع في مراقبة العادات - بعض العادات - وان كان لا يعترض على قدرته في الوصف... إلا ان العالم مخادع فني الوقت الذي يأخذ غوستاف لانسـون (Gustave Lanson) على رجال المجتمع وخصوصاً: نسائه أناقتهم الزائفة، نراه يحصر السجال حولهم ويأخذ على رسام التاريخ عدم دقته في وصفهم. ألم يعتبر تورو دانجان (Thureau Dangin) بـلـزاك (Balzac) في كلمة

الدخول الى مجتمع اللغويين الفرنسي عام ١٨٩٣ 1893 «أكبر ثلاب للطبقات الحاكمة»؟ ورآه عاجزاً عن «خلق نموذج صاف لسيدة أو فتاة».

ويمكننا توسيع السجال حول المجتمع الأرستقراطي ، ومتابعته ومقارنته بنتاج الآخرين حتى الوصول الى الرومنسيين المعاصرين : بورجيه (Bourget)، مارسيل بروست (Marcel Proust) إميل بومان (Emile Baumaun)، السيدة كلود سيلف (Mme Claude Silve) وغيرهم من الكتاب غير تهمين بالقدح والتشهير لانتمائهم بالولادة الى هذه الطبقة الاجتماعية ، المؤرخين والمعلقين على بداية القرن العشرين.. فيمكننا أن ننصب أمام مجلس القدامى (Cabinet des Antiques) وبياتريكس (Béatrix)، ودوقة لانجيه (La Duchesse de Langeais) والزنبق في الوادي (Le Lys dans la vallée) الخ.. تعب أمامها المهاجر (L'Emigré)، المحطة (l'Etape) الفارسة (l'Eaugère) وغيرها من روايات بول بورجيه (Paul Bourget). لنصل إلى النتيجة القائلة : رغم تفكك الطبقة البورجوازية كان من الممكن أن نلتقي على الأقل قبل عام ١٩٤٠ – في بعض الأحياء الباريسية أو المناطق الريفيّة ، ببعض الخلايا الاجتماعية التي حافظت على مجموعة من العادات والتقاليد

المتأصلة بالأخلاق والمؤثرة على سير الأمور والأشخاص المطابقة لما وصفه بلزاك (Balzac) في عهد عودة الملكية إلى الحكم وفي ظل لويس فيليب (Louis Philippe). وقد قال ألبير كاهويه (Albert Cahuet) عام ١٩٢٠ عن الفارسة (l'Eaugère) بأنها أجواء بالية لم تتأثر بتيارات عصرنا. فقد كانت تغمس بالعظمة الغافية المتطلعة إلى الماضي، القصور العتيقة في فوبور سان جيرمان (Faubourg Saint Germain) التي تحكمها صلابة المبادئ الجامدة والأعراف البالية. لقد كانت الجدران والزينة وأبهة المراسيم تهذب العقول التي ما كانت لتخلو من بعض الطلاقة الوقحة والجرأة والمغلفة باللطف المعطر. ونستنتج أن خلفاء بلزاك قد استشفوا في عادات وصفات الأعقاب نفس الميزات والعيوب التي لاحظها هو. لقد قصدنا أن نستهلك هذا الفصل بوصف الكاتب الذي بدأ تحقيق الشهرة وهو يدخل إلى مواقع الطبقات الفنية الباريسية، ودليلنا على ذلك أنه تحدث عن هؤلاء الذين رآهم وسمعهم وأن رسومه ولوحاته مأخوذه عن نماذج حية. ونكاد نقول أن المتهجمين على هذا التشابه يأخذون ثأر أجدادهم.

لقد بدأ بعض المؤرخين والنقاد والمتخصصين بالتحقق من قيمة الكوميديا الانسانية التاريخية. ونذكر من بينهم لونوتر (Le Nôtre)في الثورة الملكية النورمندية في عهد الامبراطورية

La chouannerie Normande au temps de l'empire

وهذا فيما مضى المصاعب التي تعرضت لها السيدة شانتري (Le chanterie) وابنتها الوجه الثاني للتاريخ المعاصر (l'envers de l'histoire contemporaine) مازك بلانشار (Marc Blanchard) في « الريف وسكانه في مؤلفات بلزاك »

La Campagne et ses habitants dans l'œuvre de Balzac,

فيما مضى الوجهات الاجتماعية والنظريات الاقتصادية الزراعية الواردة في زنبق الوادي (le Lys dans la vallée) طبيب الريف (Le Médecin de Campagne)، كاهن القرية (le curé de Village)، الفلاحون (Les paysans) ....

وهناك دراسات ومقالات عديدة تتعلق بالعالم القضائي (le Monde judiciaire)، البوليس ورجال الشرطة، la police et les policiers، الطب والأطباء la Médecine et les médecins، الدين والكهنة في الكوميديا الانسانية la religion et les prêtres dans la Comédie humaine الموسيقى والموسيقيون la Musique et les musiciens الفن والفنانون (Les Arts et les Artistes)، المالية وأصحاب المصارف (la Finance et les banquiers) الخ..

وتقبل استنتاجاتهم بصورة عامة وتقول بدقة وصف الأشخاص والمهن والرسوم المتعددة. وقد عمد موسى لو ياونك (Moise Le Yaouanc) إلى تجاوز الدراسات الجزئية التي تتناول بلزاك والأطباء والطبابة والعلم

ووصف في أطروحته الواسعة وصف أمراض إنسانية بلزاك (١٩٥٩) Nosographie de l'humanité Balzacienne، وصف وصنّف الأمراض والأطباء وتشخيص الأمراض والعلاج والنظريات الغزيرة في الكوميديا الانسانية (la Comédie humaine)، ليستنتج أن أوجاع عالم بلزاك مطابقة في غالبيتها لأمراض وردت في الجداول الطبية القديمة. ويمكننا الاستدلال، في هذه الحالات المرضية وإدراجها في الدراما الرومنسية على مدى اطلاع بلزاك، والحكم على طبيعة وأصالة فنه الخلاّق. وتخبرنا أطروحة جان هرفيه دونيه Jean Hervé Donnée، عن الوقائع الاقتصادية والاجتماعية في الكوميديا الانسانية (١٩٦١) les réalités économiques et sociales dans la comédie humaine). على العناية التي كان بلزاك يوليها لاقامة لوحة واقعية لطبقات عصره.

اكتفى بلزاك باستخدام تجاربه وملاحظاته حين رغب في وصف صحافة عصره وتقييمها ورسم عادات الصحفيين الباريسيين. في حكاية رجل ريفي شهير في باريس. (القسم الثاني من الأوهام الضائعة) (١٨٣٩). وتصرخ هذه اللوحات وهذه الصور بالحقيقة، وتضج «بالدقة المفزعة» كما كتب يقول للسيدة هانسكا. «ليست كتاباً بل عملاً كبيراً شجاعاً خصوصاً وأن صياح الصحافة ما زال مسموعاً». كان بلزاك يعرف تماماً الموضوع الذي يتحدث عنه فقد ساهم –كما سبق أن قلنا– في تحرير عدة جرائد إبتداء من عام ١٨٣٠، كما حاول تأسيس عدد منها وعانى من تهجم «نقابة

الأدباء» الظالم والخبيث عليه، هذا التهجم الناتج عن الغيرة. وقد انتقم منهم ببقائه أميناً للحقيقة. ونحن نشهد نقداً لاذعاً في «الأوهام الضائعة» وفي إحدى وقائع الصحافة الصادرة في المجلة الباريسية في ١٥ آب ١٨٤٠ ثم في دراسة الصحافة الباريسية. وقد وجد المؤرخون في شخصيات وحوادث الرواية السمات الحقيقية للعادات الصحفية في ذلك العصر وتحققوا منها. فالبطل الأساسي لوسيان شاردون دو روبميريه (Lucien Chardon de Rubempré) يقلد وينسخ اسلوب سانت بوف (Sainte Beuve) وجول جانين (Jules Janin) وبعض مغامرات البيري سوكون (Alberie Second). ويؤخذ من اعترافات بلزاك نفسه أن لوستو الروائي (Losteau) هو ساندو (Sandeau) كذلك نجد بعضاً من غوزلان (Gozlan) في ناتان (Nathan)، وبعضاً من جيراردين (Girardin) في فينو (Finot) وروكيلان (Roqueplan) في بالفرين (Palférine) (أمير البوهيمية) (Un prince de la bohème). ويبدا هذا الشبه على صلابة القاعدة التاريخية. ونكتشف كذلك في بلونديه (Blondet) وفينيون (Vignon) الناقدين في «السجال» (Debats)، بعضاً من فيليسيان فرنون (Felicien Vernon) المعلق الحقود ومقاوم الاكليروس، وهكتور ميرلين (Hector Merlin) رئيس الصحافة الملكية، والرسام الكاريكاتوري (بكسيو Bixiou). نكتشف من خلالهم جميعاً. الخفايا المخجلة والمناورات العمرية والمساومة والابتزاز والانتقام الشخصي ونفحات الغضب وانعدام الاقتناع الذي

تميزت به صحافة عهد الملكية والملكية البورجوازية ، بعد أن تحولت الى تجارة . فقد كان لمكتب الجريدة وقاعات التحرير ومستودع الناشر والمكتبي كواليسها التي تساوم فيها الصفقات الغير شريفة والمقززة أحياناً. ويقول لنا بلونديه (Blondet) «لم تعد رسالة الصحافة الاعلام وإيضاح الأمور بل باتت مدح الآراء. انها دكان تباع فيه للجمهور الكلمات التي يود سماعها» . فالفساد سائد ومنتشر بين المديرين وبين الكتاب المغمورين . ومكاتب الجريدة هي «مواخير الفكر حيث تباع كافة الأنواع الأدبية» .ولكن ماذا يمكن القول عن النقد؟ ان المدح والاستنكار يقيم – بالقسطاس ، والشهرة تصنع فيها وتهدم وفق أوراق البنكنوت والمزايدات . «فنحن تجار الكلمات ونعتاش من تجارتنا ... والمقالات المقروءة اليوم المنسية غداً لا تساوي بنظري الا ما يدفع مقابلها ..» هذا ما يقوله فيليسيان فرنون (Felicien Vernon) أحد مشجعي الفرقة الذي يشكو للجميع من الحياة الكريهة التي يحياها بزواجه من طاهية بدينة . وهذا هو المبدأ الذي يبرر هذا المسلك الشائن : «كل شيء ثنائي في ميدان الفكر . وللآراء وجهان ، جانوس هو اسطورة الوهم ورمز العبقرية» . هذا هو المبدأ الذي يعمله بلونديه (Blandet) الى لوسيان روبومبريه (Lucien Rubèmpré) . بكلمة اخرى يعتبر من دلائل الموهبة قدرة الكاتب على نقض الحكم الذي أدلى به اليوم في الغد ، أو كتابة تقريرين متناقضين الواحد تلو الآخر . أما بلزاك فقد كان يغالي في تقدير الصحافة ويريدها أن تصبح كهنوتاً مقدساً ومحترماً .

وهكذا نصب أمام هذه الفرقة من البوهيميين والمتذبذبين الندوة الأدبية التي تضم ميشال كريستيان (Michel Chrestien) وجوزيف بريدو (Joseph Bridau) ودانيال دارتيز (Daniel d'Arthez) وأصدقاءه. وهم فاضلون لا يقبلون الرشوة ويعتبرون أن العمل والاستقامة هما الطريقان الوحيدان الى النجاح والشهرة الحقيقية. وتتطلب صلابتهم إرادة قوية والترفع عن المال والابتعاد عن النفاق. ولم يسبق لفن بلزاك أن عرف كيف تمكن من اعطاء الشعور بالحقيقة الى هذا الحد. فهو بتهجمه العنيف على الكتاب الحقيرين الذي يبيعون موهبتهم مثل لوستو (Lousteau) إنما أشار الى الذهن الثاقب، والأداة اللاذعة التي يديرها المزاج الفرنسي بخفة. وتشكل الأوهام الضائعة هي أيضاً صفحة من تاريخ الأدب تدرس فيها الانواع الأدبية والافكار السائدة بعد عودة الملكية. ونجد فيها الصيغ المثيرة التي تتناول الأحكام المطلقة بصلابة والمصاغة بتهكم. ان هذه الدراسة حول الصحافة تساوي فصلاً من المذكرات (Mémoires) فصلاً مكتوباً بوعي وصراحة وتأثر وحمية – فهذه ميزات بلزاك المؤرخ.

لقد تبين بلزاك وتنبأ بالدور الكبير الذي ستلعبه الصحافة وتأثيرها في كافة الميادين. «ستكون الصحافة هوس القرن التاسع عشر» وكل فرد حر في التحقق من دقة التعبير باجراء المقارنة بين وضع الصحافة الحالي واحترام الأهواء والأحقاد والتنافس الذي وصفه لنا بلزاك، وللجميع الحق في الحكم وابداء رأيهم.

الملاحظة والحدس هما القطبان الذين تتركز فيها فضيلة بلزاك وقدرته الخلاقة. فقد خزن في عقله جمعاً كبيراً لا متناهياً من الأفكار والذكريات. وكان الخيال يأخذه حين يغرف من هذه الوفرة من الفنون فتتحقق معجزة الخلق الحقيقي. وقد وصفها بنفسه في مقدمة غشاء الكآبة. «يتعرض الشعراء أو الكتاب الفلاسفة إلى ظاهرة معنوية عجيبة، لا تقبل التفسير يعجز العلم عن تبريرها، أنها نوع من الرؤية الإضافية التي تمكنهم من إستنباط الحقيقة في كافة الأوضاع الممكنة أي أنها توفر لهم فرصة الإنتقال إلى حيث يجب وحيث يحبوا أن يكونوا. إنهم يكتشفون الحقيقة بالقياس، أو انهم يرون الشيء الذي يودون وصفه سواء لأنه يأتي إليهم أو انهم يذهبون بأنفسهم إليه...

هل يملك الناس القدرة على الإتيان بالعالم إليهم، أم أ عقلهم هو تعويذة يبطلون بها قوانين الفضاء والزمن؟.. وتنبع تصريحات أخرى الإعتقاد بأن بلزاك يملك القدرات النفسانية الخا التي توفر له رؤية الحدس فقد كان يعتقد نفسه عرافاً مستبصراً. وصف ديدرو (Diderot) هذه «الميزة الروحية الخاصة السر التي لا تقبل التحديد والتي لا يمكن بدونها تحقيق أي أمر عظي أو جميل «إنها دليل» العبقرية لدى الشعراء والفلاسفة والخطباء.. وهو ليجهل إلى أي حاسة فكرية أو جسدية يمكن إسنادها. فلا بد من إرفاقها وربطها «بالفكر الملاحظ». الذي يمارس دون جهد أو تركيز، فهو لا ينظر أبداً.. ولكنه يرى.. هو غير حاضر لكنه تأثر

بكافة الحواس ، فنحن نملك حساً جديداً لا يملكه الآخرون ، نوعاً من الفكر المتنبئ».

«أصبحت الملاحظة لدي حدساً ، وهي تتوغل في الروح دون أن تهمل الجسد ، أو انها على الأصح تلتقط التفاصيل الخارجية وتذهب بها فوراً بعيداً : إنها تعطيني القدرة على عيش حياة الشخص الذي تقع وتمارس عليه باتاحتها لي فرصة الحلول مكانه».

يغرس بلزاك المتمرس كعراف في تأويل الظواهر والإشارات ، نظراته في أعماق الاشباح التي تلاحقه . ويسبر قلبها . أفليست كائنات حية بالنسبة إليه؟ انه يتناول هذا الكائن الذي بات إنسانياً ، ويكشف عن أسراره ، وماضيه ومستقبله وأفكاره المخزية وأهوائه المختبئة . ويستبق ترتيبات القدر البطيء العاجز عن اللحاق به . ويركض أمام الملاحظة يحث من سير خطواته خصبه «المماثل» و«الضروري» . لقد حان الوقت وبات حدسه العبقري قادراً وحده على تحريك كافة الوقائع الأرضية والروحية واستغلالها في خدمة فنه . فتراكض الظلال ، رفيقة سهراته المحببة ، وتتوافد وتتسارع أمام عيونه المادية .. فيتطلع وينظر إليها وهي تتحرك وتتراقص وتختلط فيما بينها وتعيش وتتزاوج ، إنه محفل السبت الليلي . فلا يقدم لنا نسخة عما يجري أو يصور لنا أمد الناس الذين يمكن التعرف الى صورتهم في المرآة السحرية . إنه يعرض لنا أبطال وشخصيات الكوميديا الانسانية ، إنه الأب غوريو (Goriot) ، انه الأب غرانديه (Grandet) انه السيد التازار كلايس(Balthasar Claës) ، إنها الأم سيبو (Cibot) ،

إنها فيرونيك غرسلان (Veronique Graslin) إنها ديـــان دو موفربتيوز (Diane de Maufrigneuse) وآل مـــارسي (Marsay) وتيليه (Tillet) وتراي (Trailles) ، وانها الفتاة ذات العيون الذهبية ، إنها الإنسانية التي نتساءل عن الأرض التي شهدت مولدها .. ونحن نتأمل عينات من نوع غريب ونردد عبارته هو بلزاك نصف الإله «هل يطلب من الفن أن يكون أقوى من الطبيعة»؟ إنها معجزة بلزاك .

ونتلمس الإنسان الشامل عبر شفافية الفردية . فبلزاك يتابع سلالة كبار الكلاسيكيين . إلا ان السحر ينقطع فجأة بسبب ضحكة ساخرة : «حاجبتي ، إنها الأم سيبو (Cibot)» أو – «حين حضرت بالأمس بكل أناقتها إلى سهرة فلان .. شعرت انني أرى ديان دوموفربتيوز (Diane de Maufrigneuse) . يا لها من مغوية رجال» . لهذا السبب يسيء الناس ببعض رواياتهم إلى هذا المثل «أنه مطابق لبلزاك تماماً» .

من العبث ومن الخطأ أن نواجه لدى بلزاك بين الروائي والمؤرخ ، وبين المثالي والواقعي ، فهما متداخلان متكاملان ولا يمكن أن يقوم أحدهما دون الآخر . وإذا كانت أبطاله الشهيرة نماذج متطرفة إلى أبعد حدود التطرف ، بفضائلها ورذائلها مثل غوبسيك (Gobseck) ، غرانـــديـــه (Grandet) ، فوترين (Vautrin) ، هولو (Hulot) مارساي (Marsay) وهي نماذج استثنائية لحسن حظ الانسانية – أقصد الارذال فقط – فانها

صحيحة في كل تفاصيلها. ولم يعد اليوم أحد يعترض على كون بلزاك مؤرخ العادات. فقد وهبنا عن فرنسا القرن التاسع عشر «هذا الكتاب الذي نتحسر عليه جميعاً. هذا الكتاب الذي لم تخلفه عن حضاراتها لا روما ولا أثينا ولا صيدا ولا ممفيس ولا فارس ولا الهند المقدسة».

وتقول جورج ساند انه «كتب لأرشيف تاريخ العادات مذكرات تصف القرن الماضي». وكان يذكر في رواياته الأولى بعناية. أشكال الملابس البالية ومكملات الزينة والعادات والأشياء وبقايا القرن الماضي» التي تظهر غرباء أو مضحكين هؤلاء العجزة الذين حافظوا على عاداتهم القديمة في هذا العالم المتطور.

لقد بقي فضولياً يحب معرفة هذه المخلفات التاريخية الحية، متنبهاً لخصائصها كالموثق وعالم الأثريات والمحلل. أليس هذا موقف المؤرخ والمحلل: وهكذا يبقى رأي فلوبير (Flaubert) غير قابل للنقاش «لا يمكن لأحد أن يكتب تاريخ حكم لويس فيليب (Louis Philippe) دون العودة إلى بلزاك». ويمكننا أن نقول نفس الشيء فيما مضى حكم لويس الثامن عشر وشارل العاشر. والوثائق التي تفيض بها الكوميديا الانسانية تعطيها «قيمة كتاب جدليات». ويؤكد برونتيير (Brunetière) في كتابه بلزاك أن الكوميديا الانسانية تساوي مذكرات تخدم تاريخ المجتمع في عصرنا. وأنهى قائلاً بانني من هؤلاء الذين لا يعتبرون مغالياً تقييم أناتول

فرانس (Anatole France) لبلزاك». إنني اعتبره أكبر مؤرخي فرنسا الحديثة، التي تعيش كاملة في مؤلفاته الضخمة..

بلزاك مؤرخ ولكنه ينفعل مع الأحداث ويتأثر بها، لذا أيقن مصير الطبقات الاجتماعية وعلاقاتها «مرتبط بوضعها الاقتصادي». وقد اتخذ السيد جان هرفيه دونار (Jean Hervé Donnard) من هذه الحقيقة بعد أن تأكد منها، دليلاً لتحقيقاته حول الوقائع الإقتصادية والاجتماعية في الكوميديا الإنسانية. فقد دلت كل من طبقة النبلاء والبورجوازية والعامة في فترة الخلق البلزاسي الممتدة بين عام ١٨١٩ و ١٨٤٨ على تنافرها الشديد عبر عدة ثورات. انتصرت فيها البورجوازية وأصبحت الطبقة المسيطرة لأنها تملك النفوذ والمال. ومن الرائع متابعة تطور الفكر لدى بلزاك ودراسة ردة فعله لدى اصطدامه بالأحداث السياسية والاجتماعية والتجارية والمالية والصناعية والأدبية والفلسفية ورؤية التنافس الذي تثيره. ويدعم عدد من الشواهد التي اختارها الناقد العلاقات بينها وبين الآراء التي ساقها بلزاك لتأييدها أو الاعتراض عليها مما يسمح لدونارد بالاستنتاج أن بلزاك كان كاتباً ملتزماً وفق المعنى الواسع لهذه الكلمة... فقد تميز دائماً بصلابة، فيما عدا آخر أيامه. وعرف كيف يحافظ على استقلالية فكره وعمله. لقد رأى بلزاك كل شيء وتوقع كل شيء. كان نبي العصر الحديث لأنه راقب وتفهم عصره بصورة رائعة.

- ٤ -

دور الوصف الفعال

لن نفاجأ بعد أن عرفنا ذهنية بلزاك، ونحن نراه يفرد مكاناً واسعاً للوصف ويعطيه دوراً أساسياً في الروايات. فهذه وسيلة بليغة في النهج المركب: رسوم محددة، مرسم غني بالألوان، تفاصيل دقيقة كذلك تلقى الخطوط والألوان الضوء على بعض الاشياء وبعض الخصوصيات، التي يرى فيها المراقب محقاً أن «أكثر من قضية تستدعي وتتطلب حلاً». وتبدو «مشاهد من الحياة الخاصة» وكأنها قاعة عرض يفضح فيها الأسلوب النوايا: فهو لا يكتفي ولا يشبع نهمه بالسيطرة على الطبيعة والتقاطها في لوحته، بل يدخلها وكأنها ممثلة تقوم بدورها المستقل ويدمجها في لعبة الإنقلاب (تغير مفاجئ في وضع بطل مسرحي أو روائي) وتطورات العقدة. وحين نفهم هذه المزية نجد أنها تندد بالمستوى المتدني الذي يحاول البعض وضع هذا الوصف فيه بسبب وفرته وطوله المتمادي ونود تحديده من خلال بعض الأمثلة المأخوذة من مشاهد من الحياة الخاصة: (١٨٣٠-١٨٣٢) والروايات المؤلفة في النهاية (١٨٤٦)

لنتوقف ونتامل في شارع سان دينيس منزل السيد غيوم (Guillaume) تاجر الأجواخ العتيق بواجهته الغريبة التي تنصب

لافتة لها قطة تكب (la maison du chat qui pelote) : وفي الفوبور سان جيرمين (Faubourg Saint Germain) قصر دوقة لانجيه «القديم والفخم» وفي شارع تورنيكه سان جان (Tourniquet St. Jean) البيت المعتم الذي تقيم فيه كارولين كروشار (Caroline Crochard) مع والدتها : وعلى ملتقى شارع تمبل (Temple) العتيق وشارع فرانسوا الجديد القصر الذي تعيش فيه السيدة غرانفيل (Granville) وفي شارع تيبو (Taitbout) الذي يخفي فيه السيد غرانفيل الزوج هيامه بكارولين (العائلة المزدوجة). ثم نصعد السلالم ونتوغل إلى داخل المخزن والصالة وغرف النوم.

لقد عرفنا قبل ان نرى سكان هذه المنازل أهواءهم واسرارهم من خلال زينة البيت الخارجية والداخلية التي اجبرهم سوء مصيرهم على الإيواء فيه ان لم تدفعهم إلى إختياره اذواقهم ونزواتهم. وحين يتصور بلزاك الإخراج تتكرر تحت ريشته ثلاث كلمات فهو يفترض دائماً، أن مراقباً... يفسر خصوصيات الأمور والأشخاص ليصل إلى التناسق الذي أعده بلزاك مسبقاً بين هذه التفاصيل وارواح هؤلاء الناس الذين يدفعهم على المسرح نحو المأساة وهو لا يجد أية صعوبة في رؤية هذه العلاقات. أليس هو واضعها ومراقبها «كل شيء متناسق» لأنه هكذا اراده ولأنه يرغب في برهنة هذا المبدأ «علم الزينة» الذي تتداخل فيه معلومات عالم الأثريات وتاجرها. فهو قادر على الدلالة على عقد صاحبها النفسية والذهنية. هذا العلم هو المنظم

الذي ينم عن تناغم الفرقاء ووحدة الإنتباه وهو في نفس الوقت» أحد هؤلاء الفراشين الذين يرشدون الفنانين: ويقولون اليوم أحد المزخرفين الحذقين الذين يعتمدون على علم النفس الفيزيائي المطبق لتـأويـل أو استباق اذواق زبائنهم. ويمكن لهؤلاء المزخرفين اعتبار بلزاك سلفهم الشهير. ذلك أنه يمكن رسم صالة الدوقة كاريفيليانو (Carigliano) وغرفة استقبال السيدة غرانفيل وغرفة نوم كـارولين كروشار (الشهيرة بـاسم كـارولين دو بيـل فـوي Caroline de Belle feuille) ووضع وصفها في إحدى المجلات لتشكل دعـاية جذابة لبعض صانعي الأثاث: فكل قطعة: سرير أو مكتب أو صوان أو بساط أو مرآة أو ستار، تدل على افكار من نحيط بهم، يزيدون بجمالها ويبرزون سحرها. اما السيدة غرانفيل فانها على العكس من ذلك «تسم عالمها من الأشياء بطابعها وصفاتها». وهكذا تبرز حقارة وضيق وجفاف وتصلب إخلاصها الصوري في هذه الترتيبات. لقد باشر بلزاك مهمة سيقيمها برضى بعد مرور اثني عشر عـاماً بتسمية «راوي مآسي الحياة الخاصة، وعالم أثريات المنقولات الاجتمـاعية» لقد ألقى الضوء فجأة على مبدأ حايسم ليستعمل منه كافة استنتاجاته والافراد الذين يتحررون منه يسيرون عادة نحو نهايتهم، عادة وليس حتماً. «فللوضع الإجتماعي صُدفه التي لا توفرها الطبيعة». فالبنى تقولب الارواح والنفوس وتفرض التقيد بالقوانين الموافقة لتطور النوع. والسؤال الآن هل تغير النفوس شروط السكن؟ إنها تنهار. فالأوضاع المعنوية تتبع التعديلات المادية وقد يمكننا القول أنها تتأثر بالتغييرات المحلية.

(لنستخـــــــــــدم منزل القطـــــــــــة التي تـكب la Maison du chat qui pelote لنبين صحة وصوابية هذه الحقائق البلزاكية. إنها الرواية الأولى التي افتتح فيها بلزاك مجموعة من الوسائل التي سيجعلها نظاماً: إننا نجد ثلاثة أوصاف تتبعها ثلاثة أوضاع حاسمة. وهي تعلن بالتباين عن بقية الطوارئ والانقلابات التي ستحدد مصير البطلة وتؤشر إلى المنعطفات. فهناك أولاً المنزل التجاري المتصب الذي يخلد منظره المتهدم هذا المعجزة في عالم الاثريات نوعاً من الحياة الذي يتوجب التناسب مع كائنات مبنى قديم. سور هذا المبنى درب أوغستين غليوم Augustine Guillaume) ذات الفضائل المعتدلة، نموذج ربة المنزل صاحبة العقل التجاري، المبتذل وان كان متدفقاً في استقامته. كانت توفر السعادة العائلية البسيطة والافراح التي تعوض عن الحياة الكادحة وفي مقدمتها لذة إدخار المال الذي ربحته بعملها الشاق. وكانت «الشابة تترعرع في صمت المتجر المظلم كما تترعرع البنفسجة في أعماق الغابة»، بعيداً عن عواصف الأهواء وفي مأمن منها. كيف يمكن للنزوات وللمزاج الحر المنطلق، للفرح الشاعري واوهام الخيال والأهواء واحياناً لهذيان الالهام الوثاب ان يقترن بالتنظيم الدقيق، والتوقيت المنظم والاعمال الرتيبة التي تسجل نتائجها الإيجابية فوق دفتر الحسابات الكبير الذي امسكته اوغستين بعد والدتها واثر زواجها من الكاتب الذي خلف والدها؟ يظهر هذا التنافر على صورة فنان رسام نبيل باصوله تيودور دو سومير فيو Théodore de Sommervieux الذي سحره جمال الحسناء الشابة

وتذكر المأساة في الخروج عن هذه التقاليد السحيقة، العريقة في قدمها، التي مثلها وحماها حتى اليوم هذا المنزل الوقور. وتنقاد أوغستين وراء سحر الحب وترفض بسبب نزعتها الفردية الاستماع إلى نصائح أهلها وتتزوج من الرسام.

وفيما يلي الوصف الثاني والتناقض الثاني. بعد ان يتذوق الزوجان رحيق شهر العسل لمدة عام يبدأ سوء التفاهم بالتفريق بينهما فالتربية التي تلقتها اوغستين لم تعدها قط للعيش في أوساط الفنانين، وهكذا تعجز عن التأقلم وتفهم نزوات تيودور الناجمة عن اندفاعه لفنه. وتدفع حشمتها وتصلبها في تطبيق المبادئ التي اخذتها عن والدتها زوجها إلى اللامبالاة بها. ويتزايدفتوره يوماً بعد يوم. وينصرف عنها. خصوصاً وان تفاهة افكارها تمنعها من التخلص من تعصبها وتذهب كافة جهودها ومحاولاتها لاسترجاع زوجها أدراج الرياح وتكتئب سعادتها ويعتاد تيودور دو سوميرفيو Théodore de Sommervieux على هجرة المنزل الزوجي ويتكرر غيابه عنه رغم ولادة طفل لهما. ويتعلق بالدوقة ووكاريغليانو (Carigliano) وهي مغناج شهيرة في البلاط الامبراطوري. مما يدفع اوغستين بعد ان تسكب الدمع دماء إلى تقرير اللجوء إلى نصائح ومواساة عائلتها.

وينفتح امامنا قصر بورجوازي صغير في شارع فيو كولومبيه (Vieux colombier) حيث يعيش الزوجان غليوم على الضجر يقتاتون الملل بعد ان تخلوا عن المحل التجاري للإبنة البكر فيرجينيا

(Virginie) العاقلة والحذرة والرشيدة التي تزوجت من مساعد والدها ويده اليمنى جوزيف لوبا (Joseph Lebas) لقدحول الترف البارد الذهبي والفضي الذي لا ذوقَ فيه هذا المنزل إلى «سوق» وجعل من كل غرفة فيه «مصلى» ويتراءى كل هذا لأوغستين المتطورة اليوم وكأنه صورة لعالم اصطناعي، متخلف فارغ من المشاعر ومن «الافكار التي تبث الحياة في العروق». وتتعقد الأزمة فكيف يمكن أن يجئ النصح والارشاد والعون في محنتها من قبل اناس بمثل هذه الخسة يعتبرون الحب غباوة وقصصاً مملة. فكان لا بد من البحث عن ملجأ آخر بعيد عنهم. وكان الانطباع مشابها حين لجأت أوغستين بقلبهـا المثقـل إلى جوزيـف وفيرجينيـا لوبـا (Joseph et Virginie Lebas) اللذيـن يتابعـان في المخزن العتيق الحياة الرزينة الرتيبة التي تحافظ على سمعة -القطة- التي تكب. (chat-qui-pelote) ولا تجد روح الاخت الحيرى أي صدى لديهما. فهما يقابلانها بالحديث عن أخلاقية شارع سان دينيس (rue Saint-Denis) : فهذه تكفيهما لتحديد مسلكهما لكن أوغستين قد رفضت هذه المفاهيم بهربها منذ زمن بعيد. وتكون القطيعة شاملة هذه المرة وتبتعد البائسة بارتياح عن أصحاب العقول البليدة وعن منزلهم الفظيع. وتشكل هاتان الزيارتان زيارة واحدة، كما يشكل هذان المحلان المختلفان بمظهرهما بيتاً واحداً. فمنزل الأهل الكئيب ليس الا مؤخرة المخزن المعد لاستراحة «المعلم». وتخرج من هنا مشمئزة وقد اعتبرت حياتها فاشلة متهمة هؤلاء الناس المختبئين

وراء الجدران المغلقة على الخارج بصنع تعاستها . فقد اوصدت هذه الجدران على قلبها ومنعته من السمو في علياء العاطفة بعد ان أغرقته بالإرشادات . ونزلت به إلى المتطلبات الصغيرة الخسيسة . فمن كان ليدربها على اسرار الحب المثيرة ، أسرار الحب الذي يروض الرجال ويسيطر عليهم؟ لقد فات الأوان الآن .

كشف الوصف الثالث للمرأة الشابة بتناقضه العنيف ، الهوة السحيقة التي تفصلها عن زوجها وتقضي على سعادتها . استجمعت اوغستين الخجول شجاعتها ، شجاعة «خارقة» وقررت مواجهة دوقة كاريفليانو (Carigliano) السيدة الشامخة التي عرفت فيها غريمتها ومنافستها المنتصرة . كيف ستتحمل البنفسجة المتواضعة الاجواء الخانقة في قصور فوبور سانت جيرمين الفخمة والقديمة؟ وهي لم تدخلها من قبل «وحين عبرت اوغستين هذه الاروقة الفخمة وصعدت هذه السلالم الفخمة وجازت هذه الصالات الواسعة المزينة بالازهار رغم قساوة الشتاء والمنسقة وفق ذوق هؤلاء النسوة اللواتي ولدن وسط الرخاء أو اخذن عادات الارستقراطية المميزة . شعرت بانقباض في صدرها . واشتهت اسرار هذه الأناقة التي لم تخطر على بالها قط في السابق . وتنشقت سمات العظمة وفهمت جاذبية هذا المنزل على زوجها» . جاءت تنوي الاستفسار من الدوقة عن الحيل التي سلبتها حب زوجها سومرفيي Sommervieux وهنا بدأت تفهم وهنا أيضاً يرد تناقض جديد ، فكان واجواء هذا القصر المفرط في الترف والأبهة ترمز إلى الفتنة الساحرة . وتثور أوغستين مرة ثانية على

ماضيها حين يسمح لها بالدخول إلى الصالون الصغير حيث تتلقى المعبودة المستلقية بشكل مثير «كتمثال قديم» تعبير معجب عن هيامه بجمالها وهو ضابط في فرقة سلاح الفرسان «آه لو انني ربيت مثل هذه الحورية!» نعم فالاشياء تسيطر على الكائنات تنسى الدوقة عجرفتها وتتخلى عن انانيتها القاسية وتطلع الزوجة الحزينة على تجربتها وقد احتدم خيلاؤها، فتكشف عن الاسرار التي تضمن تفوق المرأة على زوجها «ان الاغبياء يعتبرون المظاهر الخارجية نصف الحياة» وهكذا يتحول أكثر من موهوب إلى احمق رغم كل عبقريته. انها ترهات ولكنها مجهولة تماماً في منزل تاجر الاجواخ السابق. يا للسخرية الدوقة «أمراة قوية» وابنة تاجر الجوخ امرأة ضعيفة انهما ثمرتا أوساط مختلفة فاوغستين ليست مهيأة قط «للتفاعل العنيف مع العبقرية» ويعيدنا التشبيه النهائي إلى مبدأ السكن. فالزهرة البسيطة المتواضعة المفتحة في الوادي تموت عندما تنقل إلى المناطق المرتفعة حيث تتشكل العواصف وتحرق الشمس.

ويمكننا إعادة تقديم هذا البرهان فيما خص رواياته العشرين مع اوجنيه غرانديه Eugénie Grandet (١٨٣٣) وكاهن القرية (١٨٣٧) حيث يتمثل منزلان وصفين نفسيين فيزيولوجيين لفتاتين ولدتا في أوجنيه غرانديه وفرونيك سوفيا (Véronique Sauviat). كذلك في الأوهام الضائعة تدل مطبعة سيشار الاب Séchard) بمظهرها المتهدم الوسخ وأثاثها المسوس المنخور على هيئة العجوز البخيل الذي يكره ابنه. ونجد

وضع أوغستين غيلوم امام دوقة كاريفليانو متمثلاً في ابنة العم بيت (la Cousine Bette.). فالبارونة الفاضلة هولو (Hulot) تذهب إلى مغنية الاوبرا جوزيفا ميرا (Josépha Mirah) تطلب منها اعادة زوجها الذي تظنه أسير حباك الفنانة الشهيرة لكنها تجد عاشقاً جديداً قد حل مكانه. وهنا أيضاً يدل التناقض في المكان على التناقض القائم بين النفوس. وهنا أيضاً تدهش عظمة الإطار الشبيه بالفخ عيون البارونة المسحورة ببذخ الأثاث. وهنا أيضاً تتأثر المغنية السئمة تماماً كالدوقة كاريفليانو أمام العظمة الساذجة والمهيبة للزوجة الكئيبة. وتخضع للمرة الثانية الانانية أمام البراءة والفضيلة وتتحول الغانية إلى خادمة للمرأة ذات القلب الصافي.

تدل رمزية الاشياء وآثارها في الارواح على مفاهيم الروائي بصورة عميقة. فالدوافع اللامرئية تحرك المآسي الكبيرة إلى درجة تؤثر معها الاشياء الجامدة بتيارها المغناطيسي على المصائر كالاحياء تماماً. ونستشف نظام التوافق الذي سيشغل إلى أبعد الحدود. فلحصاة فجورد (Fgord) افكارها ولغتها اللطيفة. وبوسع بلزاك استعمال هذه الوسيلة لتشمل الصور، فاي اشارة أو خاصية في الملبس أو مكسر في الثوب أو سمة في المظهر أو التسريحة أو الشعر المسطح وتموجاته ولون الجلد هي دلائل تدل على اخلاقية الناس وظروف حياتهم ووسطهم الاجتماعي فهي تدل عليها بنفس دقة الكلمات والتحقيقات وتعبر عن ميولها. من لم يشعر بنفاذ الصبر والقلق وهو يحاول فهم أرغة المعرفي اليهودية الالمانية البارون نوسينجين (Nucingen) في عدة روايات من

«مشاهد من الحياة الباريسية Scènes de la vie parisienne التي جمعت تحت عنوان عظمة وبؤس العاهرات؟ وأي بذاءة وأي صور خاصة في زعيق وكلمات المحكومين بالاعدام!

ونسحـــر دائماً بالكوميديا الانسانية حين نكثر من ارتيادها. فاختيار التفاصيل يستدعي فوراً معناها الاخلاقي في فكر القارئ. فينتشي بمسكر غريب وهو يفسر تصرفات أقرانه لاحسب تقويمه الخاص بل وفق اصطلاع بلزاسي حل مكان ممارسته الطبيعية ممارسة المنطق والتجربة. وسواء دخل إلى غرفة استقبال أو لدى بائع أثاث قديم (غشاء الكآبة) فهو يذكر بسرعة ما يمكن تسميته باسس بلاغة بلزاك. وكذلك هو الأمر بالنسبة للاشخاص الذي يكتشف نماذجها الأصلية لدى مؤلفة المفضل: وينبجس الاسم على شفتيه. ويصبح عاشق بلزاك الفعلي ملاحظاً دقيقاً وكانه أثر الصدمة الارتدادي وهو يدرس بدقة داخل المنزل ليستنتج منه الوضع المعنوي لقاطنه. ويلجأ إلى قاعدته المفضلة المقارنة أي جمع النماذج التي خلقها ربه. هل يشكل هذا الفن الساحر سراباً خطيراً لمن يعاني منه؟ الكل يجيبون أنه يزودهم بثقوب الفكر والتجربة والحذر. ولم يعد لنظرية الاوساط إلا قيمة نسبية وإن لم تفلس تماماً. فما زال الروائيون يتابعون استخدامها، ولكن هناك بعض التفسيرات النفسية الفسيولوجية الاخرى المتميزة بعمقها وعلميتها وتأقلمها مع ليونة الديناميكية الانسانية:

الجزء الثاني

تيار الأفكار

- ١ -

المعنى الفلسفي للبحث الخيالي الخارق

بدا انتاج بلزاك خلال السنتين (١٨٣٠-١٨٣١) غزيراً وفوضوياً. ويمكن لوردة الرياح أن تكون رمزاً له. فقد انطلق نشاطه نحو الجهات الاربع وتوجه نحو النقاط الجانبية. وإذا غيرنا التوجه وعدلناه بعدة درجات سواء يسرة أو يمنة فإن هذه الأنواع الأدبية المختلفة يمكن أن تدفع نحو هذا الخط أو ذاك بسبب عواملها المتعدّدة، فتنتقل بتطابقها مع احدى الأعمال السابقة من مشاهد من الحياة الخاصة الى مشاهد من الحياة العسكرية الخ.. الموضع موضعها يتعلق بالانطباع السائد في فكر القارئ.

لقد استوحيت هذه الصورة من تعبير «الأجولية الأدبية» التي يستعملها القصصي في مقال له بتاريخ ٢٩ أيار ١٨٣٠ «الدُرْجَة في الأدب». ليعلن دُرْجَة العام المقبل وتوجهه «بوسعكم الاختيار بين اللون والمأساة بين الخيال والواقع»، وقد نشر «غشاء الكآبة» في آب ١٨٣١ ثم طبعها للمرة الثانية وأرفقها باثنتي عشرة رواية وأعطاها عنواناً واحداً عاماً «روايات وحكايا فلسفية». وعام ١٨٣٢ أثْرت السلسلة بـ«حكايات فلسفية جديدة».

تبدو الصفة للوهلة الأولى مدعية متباهية. فالرجل المفكر

يستشف الفلسفة في كل الأمور حتى في القصص الغريبة والهزلية والمحزنة. وكانت كلمة خيالية أنسب إلاّ أن بلزاك رفضها : حين ظهرت في شباط ١٨٣٢ «الحكايات الداكنة» التي ساهم فيها بلزاك مع فيلاريت شال (Philarète Chasles) ورابو (Rabou) أعلن في مقال نشره في «الكاريكاتور (Caricature)» «لنبدأ بتهنئة واصفي الحكايات الداكنة لعدم استعمالهم كلمة خيالي في العنوان، فهذا بيان متداول لنوع ما زال مستجداً، لكننا استهلكناه لكثرة ما أسأنا استعمال اسمه فقط. وإذا ما توفرت مرة شروط مثل هذا العنوان فقد تحققت في المؤلف الذي نعنى به : عين بلا جفون، جسد بلا أذرع رأس بلا صاحب، تفاصيل عن حياة في عالم مختلف. تلك هي أنواع الخيال والاغاني جاهل لا أعرف شيئاً»... وينطبق هذا الحكم على المؤلفات السابقة «الكسير الحياة الطويلة (l'Elixir de longue vie) الصفر (Zéro)، رقصة الحجارة (la danse des Pierres)، كوميديا الشيطان (La comédie du diable) الفندق الأحمر (l'auberge rouge)، يسوع المسيح في الفلاندر (Jésus Christ en Flandre)، غشاء الكآبة (la peau du chagrin). لقد أخصبت الحكايات الخيالية التي وضعها هوفمن (Hoffmann) وترجمها لويف فيار (Loève Veimar) (١٨٢٩) وزادت حب الجمهور لتذوق هذه الدُّرْجة. وقد اتبع جول جانين (Jules Janin) الخط السائد في

كتـابـه «الحمار الميت والامرأة المعـدومـة بالمقصلة» (١٨٢٩)
(l'Ane mort et la femme Guillotinée)
والاعتراف (١٨٣٠) (la Confession). فأيقظت هذه الموجة لدى بلزاك ميلاً بدا لديه في مؤلفاته الأولى التي وضعها قبل عشر سنوات فـــــــالتورن (Falthurne) ستيني (Stenie)، المنوي (le lentenaire)، الجنية الأخيرة (la dernière fée)، ارغو القرصان (Argow le pirate). لقد صاغ حبكتها بمظاهر غير طبيعية تعود الى القوى المجهولة في الجسم الانساني والمشبعة بالجو الحيوي والتيار المغنطيسي الذي يقذف بطاقاته عن بعد ليحقق ارادته. ثم بدل الروائي الشاب سحر آن رادكليف (Anne Radcliffe) وماتورين (Maturin) بعمال يملكون قوة كبيرة يعمد الى تعليلها علمياً. وكذلك استخدم في مؤلفاته المسماة فلسفية غشاء الكآبة. هذه التعويذة السحرية التي تمكن مالكها من اشباع كافة رغباته وهي تتناقص بتوفر كل لذة جديدةويؤدي تلاشيها الى موت مالكها. كذلك هناك الألكسير الذي يحيي المحتضرين ويحفظ لهم حياتهم، وهناك احتفال يوم السبت الليلي في الكاتدرائية حيث تتراقص الأقبية والركائز والمقراء وتعزف الأرغن وحدها. وهناك الوثيقة الشيطانية التي تضفي الشباب على جسد ملموت (Melmoth) بعد أن يدفع روحه ثمناً. فلا بد من تقديم تنازلات للتوافق مع ذوق العصر. ولكننا سرعان ما ننسى هذا الغشاء الشرس، ونهزأ من سخف الميثاق الشيطاني الذي يقيم في البورصة كأي سهم عادي.

فنحن نعرف حقيقة هذه الأحداث الغريبة ونعي أنها رموز باردة. ألا يبدو الفنان ماهراً باستبدالها ببواعث وعلل طبيعية؟ غشاء الكآبة هو رمز السل الرثوي الذي ينهش رفائيل. إنه العربة السحرية التي تنقلنا بين كافة الطبقات الاجتماعية لنشهد كيفية تطبيق المبادئ الفلسفية فيها وقال فيلاريت شال (Philarète chasles) ان غشاء الكآبة والحكايات هي مؤلفات «تنحصر فيها الملاحظات الحقيقية والذكية ضمن اطار السحر». لقد هدف الكاتب الى رسم «خيال عصره» في لوحات صادقة بصحتها. ورمى المفكر الى نقل الحكمة المنقوشة على التعويذة بلغة واضحة. كمنت روعتها الحقيقية رغم أنها عجيبة، في ذكر وتعداد ألوان الحضارة الهائمة المتطلعة الى الملذات الجامحة في مجون الأهواء عبر الترف المنتشر بوقاحة الى جانب البؤس الاجتماعي. وتؤخذ العبرة الفلسفية بالدلالة على آثار هذه التطرفات خصوصاً وان بلزاك قد اعتبر هذه الحكايات تقلبات لفكرة غشاء الكآبة التي عالجها في السمفونية. فهي في عمقها تشكل دراسة للعادات، وتعتبر نافذة بأهدافها، وخيالية بشكلها، وفلسفية بهدفها الفوري لأنها تقتضي البحث عن أسباب الفوضى الاجتماعية.

لنعد تشكيل النظام الفلسفي لدى بلزاك. من أين يأتي مرض العصر وهذا اليأس الذي يلاحظه المراقبون والأطباء في صفوف شباب عام ١٨٣٠؟ خصوصاً وأنه لم يسبق لحمى الملذات أن ملكت مثل هذه المجموعة من المتع ومشاعر أكثر رهافة وأكثر عنفاً. حيث وحدت الروح والجسد ثرواتها ،فكانت كلما اشتدت هذه المشاعر كلما

يئس هؤلاء الشباب فلِكُل تجاوز ثمنه. ذلك ان الحواس تضعف من ممارسة هذه اللعبة الرهيبة وتستهلك القوى العصبية وتمتلئ الروح بالفراغ كلما ازدادت وارتفعت الدعوة إلى النهاية فيتقزز المرء ويشمئز ولا يعود الجسد يستيقظ إلاّ بواسطة إثارة متزايدة وغير منتظمة لحاجته إلى شهوانية جهنمية مما يدفع العقل إلى ابتكار واختراع ملذات مفتعلة وتحسين وسائل المتعة. أليس هذا هو الهدف الذي يتوق اليه تقدم الحضارة الحديثة؟.

. .

«يتحول الفجور والفسق إلى فن عظيم كالشعر». وترتكز قاعدة هذه الأنانية على السلطة والإرادة مجتمعتين. وهي تؤكد ما قاله جان جاك بأن «الانسان الذي يفكر هو حيوان فاسد» ويردّد بلزاك «لا بد من اعتبار الفكر الواقع الأساسي في اضطراب الانسان». فكلما تحضر الانسان كلما نحر نفسه لأن «الحياة تتناقص وتنخفض كلما تزايدت رغبات الانسان». ويمكن لحكمة أبيقور أن توفر لنا الوقاية الفعالة من هذه القاعدة الثانية: الرؤية والمعرفة، فاكتشاف فحوى الحدث بواسطة الذكاء، والتمتع به بواسطة الحدس بعيداً عن القذارة الناتجة عن التملك الجسدي الذي يتحول الى أفكار بعد إشباعه. فحققوه دون إرهاق أعضائكم. فهذه «الشهوانية المثالية ستوفر لكم أفكاراً تنفيذية إذا كنتم من الفنانين». هذا هو الاجتهاد الجميل الذي تعلمه العجائز البلهاء السبعينيات للشباب دون جدوى. وتكذب إحداهن بصورة مضحكة نظرياتها بعد أن عرضتها على رفائيل (Raphael) بطل الرواية فهي تعتبر أن «ساعة من الحب» تتقاسمها مع «شاب

غول» أكثر ضرورة من «هذه الأفكار الأشباح» وهذه الأوهام الفارغة. فقد قتلت الفكرة المفكر. وتبين أن الجمود في الحياة والاعتدال والتنكر للملذات التي علمها والد بلزاك لابنه لا تعني شيئاً للولد. وكل ابطال غشاء الكآبة، رفائيل وفيودورا وتاجر الأثريات العجوز والعاهرة أكيلينا (Aquilina) (المعرضة للموت في المستشفى) يفضلون عدم فقدان أي شيء إنطلاقاً من الغبطة المسبقة حتى آلام الأهواء المبرحة. فالموت هو مقايضة.

سندرس القيمة العلمية لهذه المبادئ الفلسفية، لكننا لن نناقش بُعدها الاخلاقي الذي ادعى به المؤلف والذي ندد به دولاتوش (M. de Latouche) وسانت بوف (Sainte Beuve) ومونتالومبير (Montalembert). تكمن جدارة هذا الشعر -- فقد كان بلزاك يكره تسميته رواية- في رسم أكثر الأوساط تبايناً التي تنقلنا فيها «هذه الفتنة الشرقية».

منح وأعطى هذا «السحر في الخلق» وهذا النقد اللاذع وهذه الشعرية الملونة الحواس بتوهجاتها، تحسساً بأكثر الوقائع مأساوية. وإشعاعاً مضيئاً ونعومة الغزل البريء الغض. إنها دوامة تتسارع حركتها في لمعان وفرقعة السوط، ويرهق المروض مخلوقاته هذه الوحوش الحقيقية المزمجرة لذة، التي لا تشبع والتي لا تتعب في ثملها. ويضغط الحبور على الفنان ويدفعه في رقصة الألوان والايقاع والصور والأصوات. ويتلوى اسلوبه ويتموج نثره ويخضع لتغيرات المشاهد

بمهارة لا مثيل لها. ويبقى رغم كل شيء مؤرخ القرن التاسع عشر الذي قتله سم التطرف في الحضارة.

نجمت الحكايا الفلسفية وفق مؤلفها عن القاعدة الواردة في غشاء الكآبة. فحدة الفكرة أو كثافة المشاعر سواء كانت مشاعر فرح وحبور أو أحاسيس ألم روحي، تخل بنظام القوى الحيوية وتدمر الجسد. وقد أتى الدليل على ذلك في الوداع (Adieu). ففي ممر بريزينا (Bérésina) تفترق الكونتيسة دوفانديير (de Vandières) بعنف عن صديقها. الأمر الذي يدفعها الى الجنون وترديد كلمة واحدة فقط الوداع وهي الكلمة الأخيرة التي قالتها لفيليب دوسوسي (Philippe de Sucy) الضابط الذي تحبه. وحين يعود هذا الأخير لا تتوصل المعتوهة الناعمة إلى التعرف على الكائن الذي لم يتوقف عن اعزازها. فيحاول يائساً أن يرد إليها عقلها ويعيد تشكيل الاجواء الفظيعة التي شهدت فراقها. الأمر الذي يسبب صدمة نفسية للتعيسة فتولد الفكرة فوراً. وتتوصل «الارادة الانسانية بسيولها الكهربائية» إلى إحياء هذا الجسد الابله وتغرق المرأة في دموعها حين تتعرف الى صديقها فتعانقه وتضمه وفجأة «تجف دموعها ويشحب لونها كما لو ان التيار قد صعقها». ونجد وصفاً لنفس الآثار في المصادر (réquisitionnaire) لدى ام قتلها الألم حين وجدت ابنها. وفي مـــــأساة على شاطئ البحر (un drame au bord de la mer) قتل صياد بريتاني ابنه لأنه خشي أن يلوث له إسمه وهنا قتلت فكرة الشرف العائلي فكرة الحب الأبوي. وفي

الفندق الأحمر (Auberge rouge) قتل صديق صديقه لأن فكرة الجريمة تولد الجريمة وهنا برزت فكرة التسيير الذاتي.

وفي ال فردوغو (El Verdugo) قضي على الابن البكر قتل أبيه واخوته لإنقاذ حياته. فقد أطاع أمر الوالد الذي رغب في بقاء إسم ولقب عائلته النبيل. وهنا أزالت فكرة الأسرة فكرة الحب الأبوي وفي اليكسير الحياة الطويلة (Elixir de longue vie) قتل الابن أباه للحصول على ميراثه بصورة أسرع. وهنا برزت فكرة الوراثـــــة. وانضم مـــــالموت المبـــــارك (١٨٣٥) (Malmoth reconcilié) إلى مجموعة الدراسات الفلسفية. وهي قصة رجل باع نفسه للشيطان ليحيا طويلاً ويغرف من الملذات وهنا نجد فكرة الحياة المديدة. وقد تجلت القوة والسحر والاشباح في كلتا الروايتين.

وبقي علينـــــــــــا دراسة المؤلف المجهول le chef d'œuvres inconnu (١٨٣١) والبحث عن المطلق (la recherche de l'absolu) (١٨٣٤). إعتبرت الأولى مقدمة لمأساة لويس لامبير (Louis Lambert) فهي قصة رسام اسمه فرينهوف عاش في القرن الثامن عشر قتلت مخيلته الواسعة الباحثة عن المثل قدرته الفنية، عمل سراً لمدة عشر سنوات في رسم لوحة امرأة كان ينقحها باستمرار وقد لفه الهذيان والهيام مما قضى على التوازن بين حياته الداخلية والرشاد. وحين سمح لصديقيه بالاطلاع على اللوحة لم يجدا فيها إلا ألوان مشتتة وخرابيش لا شكل لها وخطوطاً متداخلة

فيما كان هو يتأمل منذهلاً ما يعتبره جمالاً خارقاً، ولم يتمكن الآخرون من إقناعه بالعكس وإهدائه وقد قضى في الليل. وقد أعيا بالتازار كلايس (Balthazar Claës) الباحث عن المطلق نفسه وهلك في مأساة مشابهة. فقد كان يحاول اكتشاف وسيلة تحليل الأزوت. وتشبث بهذا الأمر الذي يؤمن بلزاك أن الكيمياء الحديثة قادرة على حله وتدفع هذه الأهواء بسبب تكاليف التجارب المترتبة عليها عائلة كلايس (Claës) إلى الإفلاس ومات الكيمائي يأساً معتقداً في لحظاته الأخيرة أنه اكتشف السر الذي بحث عنه طويلاً. وينضم بعد فترة طويلة المؤلفان غامبار (Gambara) (١٨٣٧) وما سيميلا دوني (Massimila Doni) (١٨٣٩) المؤلفان المخصصان للموسيقى إلى الدراسات الفلسفية. وظهرت الموسيقى فيهما بشكلها المزدوج المتعلق بالتنفيذ والتأليف الذي خضع إلى نفس تجربة لويس لامبير الفكرية (Louis Lambert) أي المؤلف والتنفيذ اللذين قتلتهما وفرة المبدأ الخلاق. وماسيميلا فتاة جميلة وتعيسة تنتمي إلى طبقة النبلاء في البندقية عانت من إهمال زوجها كاتانيو (Cataneo) الدوق العجوز الماجن الفاجر. فقد كرس هذا العجوز المهووس كل شيء، حتى ثروته، في سبيل لذة خيالية، أثناء بحثه عن نغم موسيقي وهو التناسق التام بين ألفة نغم الزير (دقيق الأوتار) والصوت الانساني. ونقطة الرواية الحساسة هي الفكر قاتل الفن. كذلك نجد لدى الأمير إميليو ميمي (Emilio Memmi) عشيق ماسيميلا (Massimilla) كيف أباد الحب المثالي قدرة الرجولة.

أعطى بلزاك هذه المغامرات سرعة أضاقت نفس القارئ. فقد عرف فن الإيجاز وعقد إرادياً غرابة الأجواء.. فانطلق الشعر الغني بالضربات والمفاجآت والوحشية المأساوية والمؤامرات ولف الوجوه التي خطت لمساتها فيها الحساسية تارة أو القوة تارة أخرى، هذه الوجوه الملونة كتلألؤ الزجاجيات وهنا تكمن جدارة الراوي.

كان بلزاك شاعراً أكثر منه فيلسوفاً. وهذا ما كان يمنعه من عرض نظرياته الفلسفية بصورة جدية. لقد كان الشعر عربة أفكاره. التي غذاها «العلم المختبئ» الذي حمل «طريحته في نفسه» وقد حاول وضع الصيغ الفيزيائية النفسية فيها كما يقول فيليكس دافن (Felix Davin) وقد أشرنا إليها. إنبعث من نص هذه القصص تأملات فلسفية ونظريات عامة تعمق فيها لويس لامبير (Louis Lambert) وقدمها لنا محررة في صيغ صالحة للتأمل. وسيرافيتا التي بلغت نهاية تطورها الملائكي، أتاحت لنا الإستفادة من صياغة فلسفية شبه سويدنبورغية. فتعاليمها التي عرضت على شكل أطروحات واسعة انتقدت السبل العلمية والفلسفية حين رغبت في برهنة وجود الله وتحديد العلاقات بين العالم والإله الخالد. وقد وضع بلزاك نفسه بعد فترة كتاباً موجزاً حول المغنطيسية في أورسول ميرويه (Ursule Mirouët) (١٨٤١) ودراسة حول علوم السحر والتنجيم في ابن العم بون (le cousin Pons) (١٨٤٧) ليضع بمتناول يدنا حجج أبطاله ويوضح لنا تصرفاتهم وغالباً ما كان يقترح في روايات

أخرى دافعاً من نفس الطبيعة في سبيل تحقيق نفس الغاية وقد بقي أميناً لهذه القاعدة حتى النهاية.

ونجد في أسلوب بلزاك المنهاج الفيزيائي الذي وصفه كاباثيس في دراسته حول فيزيائية وأخلاقية الإنسان التي كملت بفضل ملاحظات طلابه بروسيه (Broussais)، بيشا (Bichat). دوبويترن (Dapuytren). وقد كان لهذين الأخيرين اللذين غالباً ما ورد ذكرهما في الكوميديا الإنسانية زميلان من الأطباء المشهورين ديسبلين (Desplein) وبيانشون (Bianchon). والجدير بالذكر أن التوثيق كان كاملاً وقد أكد بلزاك أنه تمكن من اجراء المقارنة، وتحليل وتلخيص المؤلفات التي تركها لنا فلاسفة وأطباء العصور القديمة والعصور الوسطى والقرنين السابقين حول دماغ الإنسان . فقد غذى هذا المؤلف فكره بمؤلفات القدماء مثل كاردان (Cardan) وأبولونيوس ذوتيان (Appollonius de Tyane) وبورفير (Porphyre) وباراسيلس (Paracelse) وبلوتين (Plautin) مما أتاح له خلق أغرب الأجواء التي عقدتها الألغاز والأحاجي والآراء المزدوجة والتخاطر وملأتها القوى اللامرئية التي نستشفها من خلال الآثار التي تتركها. الأمر الذي يجعل القوانين السائدة دون علم من صانعيها أو الخاضعين لها مقبولة لبعض الوقت سواء كانت من الفيض غير المبرر والانفجارات أو انعكاساً لأفكار ليبرر بها بالتالي إجراءات وتصرفات وحدس الأبطال، وهكذا يستمر توالي الأسباب في أجواء العالم الروحي كما في أجواء العالم الفيزيائي

ودوران الأفكار التي تشكّل «ابتكارات حقيقية وفاعلة». ونجد في معجم بلزاك أن الفكر يساوي الإرادة، وأن الفكر يعني كافة مظاهر الحياة الداخلية والعقلانية والعاطفية والإرادية. والسؤال الآن إلى أي حدّ تختلف التصورية عن الإرادية؟

كل شيء يدعو إلى الاعتقاد أن الطبع البالزاكي يعجز عن تصور شيء دون أن يحاول فوراً العمل على تحقيقه وتنفيذه. فكل فكرة تميل لديه إلى التجسد بعمل. فهي ليست إلاّ تحول المادة الأثيرية التي تغذي الدماغ، انها نوع من «المطرية» (matras) الذي يفلت منها تيار مغناطيسي. وتؤدي النتائج الأخلاقية المترتبة على هذه الملاحظة إلى الجبرية. وغالباً ما كان بلزاك يشدّد على التذكير بأن مبدأ السببية هو عماد كافة استقراءاته، ولكن أن تكون سلسلة المسببات سهلة التكوين كما يتصور حين يتعلّق الأمر بإعادة بناء سلسلة من الأعمال الإنسانية وهم غرار. صحيح أنه كان يكفيه هو أن «يلقي على هذه التأكيدات الفجائية نوعاً من الضوء النفساني، بتوضيح الأسباب الغامضة التي أدّت إلى وقوعها». أفلم يكن أحد مراقبي الطبيعة الإنسانية «القادرين على قياس قوة الروابط والعلاقات والوثائق التي توحّد وتلحم بصورة سرية الأحداث ببعضها البعض» على الصعيد النفساني والأخلاقي»؟ وعلينا ألاّ ننسى أنه قد ذكر قوة أشهر المنومين المغناطيسيين المعاصرين مثل الدكتور كوريف (Koreff) والدكتور شابلين (Chaplain) والبارون دوبوتيه (Dupotet) وبالتازار (Balthazar) والأمير القس دو هوهنلوه

(de Hohenlohe) ، وأخذ تجاربهم ودمجها بتجاربه الخاصة. أفلم يكن يعتقد أنه يملك قوة خفية مغنطيسية تتيح له التحقق من صحة النظريات؟ لقد كان يعتقد نفسه متبصراً.

أخيراً، لنتجنّب إساءة فهم معنى كلمة فلسفة. فقد قال لنا بلزاك في الدراسة حول العلوم الخفية «ان مختلف الفلسفات تشكّل أمراً واحداً». وهو يعتبر أن الفلسفة الحقيقية والوحيدة «الممكنة» هي «الانثروبولوجيا». وقد دعا بكل قواه لإدخال تعليم «الفلسفة السرية» إلى الجامعة. ولا شك أنه كان يخلط في أفكاره بينهما وبين السحر. «علم الأشياء الخاص»، العلم الذي يكشف عن سير القوى.« المنتشرة في كافة أركان الكون. وبدا أن الانثروبولوجيا تشكل لديه إعداداً أو مرحلة أولى تتيح للبعض بلوغ الكمال أو دائرة المسببات التي تعيش فيها النفوس المحظوظة والمفكرون العظماء». وكان يصنف نفسه في هذه الفئة كما أنه كان يعتقد أنه يملك موهبة خاصة مثل نابليون موهبة معرفة ماهية الأشياء المطلقة بواسطة الحدس.

لإكمال عرض هذه المعطيات الفلسفية لا بد لنا من الاشارة إلى العلاقات التي كان بلزاك يقيمها بينها وبين ملاحظات علماء الطبيعة مثل ليبنيز (Leibniz) ، شارل بونيه (Charles Bonnet) ، جيوفروا سان هيلار (Geoffroy Saint-Hilaire) ، كوفييه (Cuvier) ، لافوازييه (Lavoisier)الخ... بواسطة فكرة وحدة التكوين لدى الكائنات. ويشكل هذا التوثيق العلمي المعروض بسذاجة الجزء الضعيف في مؤلفه ، فالوقائع التي يفسرها قوانينه الفيزيولوجية تمسك بخيط واهٍ بالنظريات

التي يخترعها كما ان الارتباط المفترض يسمح له بالاندفاع في تحليل الأسباب وخصوصاً في وصف النتائج. لقد أعطى العلم لبلزاك مادة فنية صالحة للاستغلال وهنا يكمن كل شيء.

غالباً ما توفرت لنا فرص الاشارة الى منهجي لافاتيه (Lavater) وغال (Gall) فقد تبناهما بلزاك منذ بداية عهده بالكتابة. إن مصير ابطال بلزاك ماثل وموجه بواسطة اشارات مرسومة على الشخص وخصوصاً في خطوط ورسم وشكل الوجه الذي يطابق تشابهه الحيواني الميزات. فالوسط الفيزيائي والاجتماعي الذي يؤثر على الفرد ويعدل في سماته هو الذي يخلق الفرق النوعي. ومن هنا نشأ علم السمات. وقد طبق بلزاك عن ايمان مبدأ لافاتيه (Lavater) الأساسي «لكل شيء فينا عله داخلية». وإن لم يلتزم حرفياً بكافة ملاحظات معلمه، فقد أخذ منها الاشارات العامة وتكفل هو باقامة علاقات متبادلة سلطوية أو متحررة بين الميول وبعض تقاسيم الوجه، هذه التقاسيم التي غالباً ما تكون تقاسيمه هو. كذلك هو الأمر فيما مضى علم الجمجمة الذي اكتشفه غال (Gall) وفق تصنيف عجرات الدماغ.

ولا يتوجب علينا لا أن نذكر إسم رواية ولا أن ندرج إسم بطل بل يكفينا أن نقلب صفحات الكوميديا الانسانية لنجد هذا الوصف. فقد أفرد في بداية البحث عن المطلق أربع صفحات على الأقل ليصف بدقة واسهاب شخصية بالتازار كلايس (Balthazar Claes)، ونرى أن كلاً من هذه الدقائق الفيزيائية

تدل على أحداث في حياته، فمشيته المهيبة هي مشية مفكر يجر الناس معه، وتدل تجاعيد جبينه وشعره وعينيه وجلده ولون بشرته، ووقفاته وملابسه وشكل رأسه على المشاعر والأهواء والعادات والميزات والمساوئ الكامنة في هذه النفس الانسانية. ولنذكر أيضاً بالتأني والتروي الذي كان بلزاك يبذله في اختيار اسماء أبطاله منها: غوبسيك ز. ماركاس (Gobseck Z. Marcas) فقد حملت هذه الأسماء معنى مصيرها القاتم، «فكرتنا مليئة بالأمور الغريبة المترابطة فيما بينها وقد نعود يوماً الى العلوم الخفية والسحرية. ونرد القارئ إلى الاستنتاج الذي توصل اليه السيد بيار ابراهام (Pierre Abraham) في دراسته المعمقة حول «بلزاك والوجه الانساني» انه - اي بلزاك - لا يعتمد على الوقائع المشهودة بل يفكر بواسطة الكلمات الصور حين يضع ويؤلف على غفلة منه علم التشكل الواسع في كوميديته. فهو لم يستعمل من علم فراسة الدماغ وعلم الفيزياء نتائجها القابلة للاعتراض بل اخذ فكرتها الاساسية الخصبة التي اتاحت له اقامة التناسب بين الشكل الخارجي والاخلاق المعنوية. لقد كان يجمع بين الافكار المتحركة، صانع الآداب هذا الدؤوب الذي لا يمل، كان يجمع بينها بواسطة كلمات اللغة الفرنسية وسجعها والصور الكامنة فيها. كان يضع الاشارات ويوفر الدلائل ثم يعمد إلى تفسيرها وتعليلها وفق اصطلاحه الخاص. لقد كان الفنان يرسم مصيراً بواسطة الرموز والاستعارات.

لكن اين تكمن المسؤولية الأخلاقية في كل هذا؟ ليس هناك

اي نتوء فيها. فالانسان مهزوم مسبقاً في صراعه ضد اهوائه. لقد صرخ فيليكس دوفانديتيس (Felix de Vandenesse) «ايتها الطبائع الفقيرة العصبية التي وضعها غنى تنظيمك لا ادري امام اية عبقرية دون أن تتوفر لها أية قدرة على الدفاع عن نفسها. أين هم حكامك واين هم اندادك؟ ويعتمد بلزاك الفيزيولوجي الكبير والاصلاحي العظيم هذا القانون الحتمي، القدري في حل ابطاله من كافة اخطائهم.

ماذا تضمر لنا هذه الزخرفة العلمية؟ ان عظمته كفنان تقتضي أن يمحو من ذهننا براعة وميل القانون النفساني الفيزيولوجي. وتبهرنا لعبة المشاهد. فنندفع في المناطق الوهمية والمتنوعة التي يوجزها لنا الديكور فلا نعود نرى حامليه. فبعد أن جذبتنا الصور الجميلة واثرت في نفوسنا وسحرت البابنا الكلمات التي تتناسق نغماتها مع الرمز المعد وتدعمه لم نعد لنهتم بالنقد، بالتفكير المـــلي في فرضياته الأولية وبديهياته قبل موافقته عليها مثله تماماً: فبلزاك لا يهتم قط بأن يكون منطقياً. فلا مكان هنا لصلابة التحليل والاستنتاجات التي تدعمه. وهو يسيطر علينا بيقينه القاطع، بواسطة المبدأ المفارق. لماذا نجهد في محاولة رقابة نهج نزل علينا من موطن الآلهة مباشرة بواسطة وسائلنا الارضية الصغيرة. «فقوة الرؤية التي تصنع الشاعر وقوة الاستنتاج التي تصنع العالم تقومان على تناغم وروابط غير مرئية غير ملموسة وخفية يضعها الرجل العادي في مصنف الظواهر المعنوية التي تخلف آثاراً فيزيائية. «ان النبي يرى ويستنتج». لقد ساوى بلزاك بهذه العبارة

نفسه في العبقرية مع بالتازار كلايس (Balthazar Claës)
فقد كان جهازه العضوي يلتقط التيارات من الأثير وينهل منها
افكاره. ويجمعها كلها في الدماغ ويعيد تشكيل ماهية الاشياء
من اجل استحضار حقيقي. فاياكم وان تحدثوه عن الهذيان. فهو
يدرك كل ما يتحدث عنه من اشياء وكائنات وظروف فيزيائية ادراكاً
تاماً حسياً حالياً. فليس هناك ماض او مستقبل لفنان من مستواه.
فهو يعتبر كافة الأمور فورية. لأنه ساحر لأنه نبي يرى ويستنتج
ويطلق قوانين الاحداث قوانين القوى النفسية الماورائية اومايسميه
بالصوفية.

- ٢ -

معنى صوفية بلزاك الخفي

جمع بلزاك في أفكاره في مقدمة الروايات والحكايات الفلسفية (١٨٣٤) الجزء الاول من الولد الملعون والمحظورون ولويس لامبير ويسوع المسيح في الفلاندر وسيرافيتا. وقد اعترف أنه رغب في إضفاء قبس من الإيمان على مؤلفه وإغنائه بالأفكار المسيحية الحزينة حول التقمص الذي يبدأ بالآلام الدنيوية وينتهي في السماء. لقد كان يتصور هذا المؤلف ويراه كاتدرائية «كاتدرائيته هو». وكان يود أن يضيئه «بالأنوار السماوية» حتى يتجلى فيه جمال المذبح الصافي. وقد أكمل بلزاك أو عدل بعض هذه الروايات التي صدرت في الفترة الممتدة بين عام ١٨٣١ وعام ١٨٣٥. كما زاد الكثير على رواية لويس لامبير التي شكلت عام ١٨٣٥ مع «المحظورون وسيرافيتا مؤلفاً واحداً سمي «الكتاب الصوفي». ونحن نستجيب لهدف المؤلف حين نجمع هذه المؤلفات نتأملها بطريقة تسمح باستخراج فكرتها العامة ونظريات بلزاك حول التصوف. وبعد أن الحقت هذه المؤلفات في السابق بالروايات والحكايات الفلسفية ضمت فيما بعد بصورة نهائية الى الدراسات الفلسفية ونزعت عنها تسمية الصوفية وان بقي العنصر الأساسي. ورغم أن هذين النوعين يمدان جذورهما في نفس الميدان في التوثيق فان المؤلفات الصوفية تحتفظ بصفاتها المميزة. فهي لا تدل

فقط على جهد فكري بناء بل تبرهن أيضاً عن إيمان وارادة تبشيرية تتميزان بالعطاء الشعري.

لمتابعة تطورها لا بد لنا من وضع جدولها الزمني ومقابلة المعطيات فيما بينها والتحقق من صحتها بواسطة ملفات خارجية ومقارنتها مع الأحداث كما قدمت لنا في السيرة الذاتية المغلفة بالرومنسية لويس لامبير. ولن نأخذ الا بالنقاط الأساسية الضرورية لهذا البرهان الذي يظهر جلياً خلال المقارنة الأولى بين التواريخ. فقد دخل بلزاك الى ثانوية فاندوم عام ١٨٠٧ وهو في الثامنة من العمر وخرج منها عام ١٨١٣ وهو في الرابعة عشرة من عمره وقبل أن يكمل دراسة الصف الرابع التكميلي أما لويس لامبير فقد دخل الى هذا المعهد عام ١٨١١ وهو في الحادية عشرة من عمره بعد أن باشر دراسته لدى عمه كاهن البحر وتخرج منه في منتصف عام ١٨١٨ بعد أن بلغ الثامنة عشرة من عمره وأتم دراسة الفلسفة. وقد تزود بالمعرفة والثقافة التي تجعل مقبولاً نشاطه الفكري الخلاق المبكر الذي برز في دراسة وتحليل الظواهر العجيبة الجارية في نفسه ليأخذ منها الاستنتاجات ويصيغ القوانين. والجدير بالذكر أن غالبية هذه التجارب قد وقعت بعد عام ١٨١٣ كذلك لنقبل بدعوة بلزاك ونأخذ بشهادة برشو دو بنهوين (Barchou de Penhoën) رفيقه القديم وجاره في عنبر النوم: «لقد كان مهتماً ومشغولاً مثلي تماماً بالقضايا الماورائية، وغالباً ما كان يهذي معي حول الله وحولنا

وحول الطبيعة.» ولنعتبر دليلاً على قلقه الديني الاعتراض الذي وجهه الى مرشد المعهد قبل عدة أشهر من تناوله القربان قائلاً:

«اذا كان الله هو مصدر كافة الأمور فكيف نبرر وجود السوء في هذا العالم؟» ونحمل دليلاً على اندفاعه الصوفي وإيمانه عند تقديمه القربان وفضوله الذي يدفعه الى القراءة سراً، والاطلاع على آباء الكنيسة وأعمال الشهداء. ويتوجب علينا أن نلاحظ أن هذه الفردية قد تولدت عن الخيال والذكاء ذلك أن الطفل يريد أن يجدد في أعماقه صبر المعذبين أثناء ألمهم، فهو يعتقد أن هذه الشجاعة تتعلق بالطباع الشخصية ويود أن يكتشف وسيلة البطولة فيقوم في خياله باعمال عظيمة بعد أن اقتنع في أعماقه بأنه واحد من هؤلاء الأولاد المشهورين مثل بيك دولا ميراندول (Pic de la Mirandole) وباسكال (Pascal) اللذين يقرأ مغامراتهم وأعمالهم المجيدة بنهم. وتبدو لنا هذه العناصر قابلة للتحقق فيما خص الصوفية لدى الطالب الصغير.

قد لا ترضينا كل هذه البراهين الا أن فيليكس دافين (Félix Davin) يكتفي بها ويأخذها حجة ليبرهن على مدى حداثة أصل النظام الفيزيائي الذي دارت حوله كل أفكار بلزاك في نفسه، وفي تجاربه الأولى. ذلك أنه في عام ١٨١٣ بعد مغادرة هونوريه المدرسة وعودته الى كنف عائلته بدأ بالاطلاع على مؤلفات سويدنبرغ وخصوصاً سان مارتين (Saint Martin) وقد بتنا

نعرف كم يدين هذا الفضول المستحدث الى مكتبة الأم بعد أن رأينا محاولاته الأولى الملونة بالسحر والعلوم الخفية مثل فالتورن ١٨١٦ ، جان لابال (Jane la Pâle) (١٨٢٢) وثيقة الصلاة - ١٨٢٤ التي يبدو فيها نفوذ انسان الرغبة جلياً. وتبدو هذه الوثيقة وكأنها الفصل الأول في تاريخ الكنيسة البدائي الذي أراد لويس لامبير وصفه بتفسير استقرار عدد الشهداء ورده الى أسباب فيزيولوجية. كذلك نجد أن الرسائل التي وجهها لويس لامبير الى عمه الكاهن لوفيفر (Lefevre) لمدة ثلاث سنوات خلال دراسته العليا في باريس تدل بدقة على أفكار بلزاك فقد اتبع الاثنان دروس السوربون ومعهد فرنسا ومتحف العلوم الطبيعية ومعهد القانون في نفس الفترة كما يستدل على ذلك من الملاحظات الفلسفية (١٨١٨). وقد بلغ هذا البحث نهايته وتطوره الكامل في الفصل الثامن من سيرافيتا المسمى الطريق الذي يقود الى الله الذي أشار اليه بلزاك وعينه على أنه بحث الصلاة. وقد حكى لنا في لويس لامبير تاريخه السابق وتطور أفكاره الصوفية حتى عام ١٨٣٢ وظهور الطبعة الأولى من لويس لامبير وليس فقط خلال مرحلة دراسته في فاندوم وسرد علينا تطور أفكاره الصوفية حتى عام ١٨٣٣ حين ظهرت الطبعة الثانية المضخمة والمسماة تاريخ لويس لامبير الفكري ، وحتى عام ١٨٣٥ حين ضم هذا النص المنقح والموسع (رسائل لويس لامبير) الى الكتاب الصوفي ، حتى عام ١٨٤٦ موعد النشرة النهائية التي سبقتها نشرات كثيرة أدخلت عليها تعديلات مستمرة. وقد أثرت

البيبليوغرافيا التي ظهر المؤلف فيها عبر لويس لامبير وسيرافيتا بالمعلومات التي جمعت من الأساطير حول الموضوع الذي شغل بلزاك طوال حياته.

لم تتوقف قضية المصير الانساني عن جذب اهتمام بلزاك، وتداخلت في نشاطاته كإنسان وكاتب. وتدل الرسالة الموجهة الى شارل نوديه (Charles Nodier) حول مقاله المسمى : التقمص الانساني والبعث (١٨٣٢) على فضول فلسفي لا على قلق باسكال. ذلك أن أبطاله مثل أتيان ديروفيل (Etienne d'Herouville) الطفل الملعون ودانت المحظور وغودفروا (Godefroid) رفيقه الشاب، لويس لامبير وسيرافيتا يتوقون الى السماء ويعتبرونها منطقة الصفاء النهائي أكثر منها موطن سعادة. خصوصاً وأن الغموض والظلام الماوراني يحيط بكافة المقدسات وكافة الأديان في هذه الدنيا البائدة، لذا نجد أن كل هؤلاء الأشخاص يرددون عبارة دانت «أنا السر الذي يُخفي على نفسي» ويحاولون اختراق اللغز ويودون رؤية الحقيقة فتبلغ تطلعاتهم حداً من العنف يدفعهم إلى طلب الموت للاقتراب من المنية وقد حاول غودفروا (Godefroid) أن ينهي حياته بيده ليبلغ بسرعة أكبر منطقة الضياء. وراودت لويس لامبير فكرة بتر بعض أعضائه بنفسه.

يتوجب علينا قبل أن نحاول تفسير الأمور بشكل مثير أو : للآمال أن نعطي صدق بلزاك حقه. فقد رغب في أن يفسر مصيره فاستخدم لويس لامبير واعتبره واسطة نشر من خلالها معتـ

التي رآها مفيدة لكل الناس. وعلينا الا ننسى أنه كان يفضل لويس لامبير وسيرافيتا على كل مؤلفاته. فقد أسر للسيدة هانسكا «يمكننا أن نصنع الأب غوريو (le Père Goriot) يومياً ولكن من المستحيل أن نصنع أكثر من سيرافيتا واحدة في حياتنا». كذلك قال «إنها كتب (أي لويس لامبير وسيرافيتا) أضعها لنفسي ولبعض القلة». ويتابع قوله «أعرف تماماً الأفكار الواجب الأخذ بها والتعبير عنها عندما أود وضع كتاب للجميع..». وإننا لنتساءل هل تكشف هذه الجملة الصغيرة «أضعها لنفسي ولبعض القلة» عن سر المطلع؟ فقد برهن روبير أمادو (Robert Amadou) ان بلزاك كان ملماً بعمق بأفكار سان مارتين وإن لم يكن بوسعنا القول بتدرج شعائري حقيقي.

تعود أصول «الفلسفة الشعوذية» التي يستند اليها بلزاك الى المسيحية الأولى وتمتد عبرها الى علوم الأساطير الشرقية البعيدة. فقد كان يسوع نفسه أحد كبار المطلعين على الخفايا وأخذ عن التقاليد الموسوية المتولدة عن التقاليد المصرية أسرار عظمته وقدرته على صنع المعجزات، هذه الأسرار التي نقلها الى الرسل وخصوصاً يوحنا المعمدان «فالرؤيا هي نشوة مكتوبة وذهول مخطوط». والجدير بالذكر أن هذا المذهب الذي يشمل «مجموع الأسرار والالهام الذي حصل منذ بداية العالم» قد علم علناً في جامعة باريس في القرن الثاني عشر. وقد انتقل «بغموض» الى السيدة غيون (Guyon) وفينلون (Fénélon)، ليصل أخيراً الى النبي السويدي سويدنبرغ (Swedenberg) ورفيقه القديس مارتان

(Saint Martin) «الفيلسوف المجهول». لقد حاول سويدنبرغ أن يعيد كنيسة روما التي اضطهدت الكنيسة الداخلية وعقدت الديانات المسيحية بالطقوس الشكلية الى بساطتها الأولى فخفض الى حد بعيد ممارسة طقوس العبادة وحظر وساطة جماعة الاكليروس ولم يشك بلزاك في عام ١٨٣٤ أن سويدنبرغ سينتصر. فالشك يملأ قلب فرنسا والكاثوليكية تفقد السيطرة المعنوية على العالم بعد أن فقدت قيادته السياسية. ولا شك أن روما الكاثوليكية تحتاج في سقوطها الى نفس الوقت الذي تطلبه سقوط روما الوثنية. أي شكل سيتخذ الشعور الديني؟ ما هو التعبير الجديد عنه؟ الجواب هو سر المستقبل (مقدمة الكتاب المتصوف).

لقد كان لويس لامبير جهداً علمياً لتوحيد كافة أشكال وكل قوى الطبيعة. وسيرافيتا هي الانجاز الذي يرنو إلى تحقيق التكامل بين الفكر والوحدة بواسطة جهاز خفي. وقد اعتمد المؤلفان على مبدأ واحد هو الترابط الكامل بين المحيا والروح: وتبين هذا الأمر يومياً ملاحظات الفيزيائيين التي تزداد دقة وتنوع. فهي تحضر لعلم الاكتشافات المثيرة. ولا بد من القول أن بلزاك قد جهد لإعطاء «مونة» للمظاهر الغريبة والهبات الخارقة التي يعتز بها الملهمين من أصحاب الرؤى. فقد اراد إحلال العلمية مكان العلوم السحرية الخفية ليبرهن أولاً ما يعتبره العامة امتيازاً وخاصية رائعة وليعم ممارستها لدى النابغين. وقد أوضح بلزاك بالفعل النظرية في رسالته الى شارل نوديه حول مقاله المسمى التقمص الانساني والبعث (١٨٣٢).

فهذه الرسالة تشكل دراسة للمعتقدات والميول الصوفية–العلمية. ذلك أن الانسان يملك «قدرات كمول» وقدرات ما زالت مجهولة، لا تحمل اسماً ولا يمكن مراقبتها أو قدرات منسية أو مفقودة أو ضامرة هزيلة. وهذه القدرات وحدها هي التي تفسر مقاومة الشهداء المسيحيين الأول لأفظع أنواع التعذيب. ذلك أن فكرة الايمان تقضي على فكرة الألم لديهم فالكنيسة الأولى هي عهد الفكر. وقد اعتمد بلزاك حقاً على رجل بوفون (Buffon) المزدوج : فالرجل الداخلي والرجل الخارجي في تضاد مستمر. والتيار المغناطيسي الذي يخرج من الدماغ والمسمى بالارداة، هو قوة لم تعرف أولياتها ولم تقيم قدراتها ولم يدرس استعمالها وتطبيقها. كذلك يعتبر الاتصال بالادراك، ووضوح الرؤيا، والروبصة والذهول والرؤى والاستحواذ الشيطاني والشفاء ظواهر ناتجة ومتولدة عن انعكاس تيار مغنطيسي؛ وهو يوضح بهذا المعجزات التي حققها يسوع أو رسوله سواء باللمس أو عن بعد. وهو يعتقد أن علماء الفيزياء سيبلغون نتائج مدهشة بتحديدهم العلاقات الكمية والنوعية بين الفكر والارادة وسيجدون الوسائل التي توفر لهم إمكانية التوغل في المنطقة الدقيقة من الفكر والمشاعر. حتى يتوصل الإنسان المدرب إلى الاتصال بالفكر مع الآخرين وإلى قراءة الأدمغة دون حاجة للرجوع إلى الحواس الجسدية.

بم يحسن كمال الحواس هذا العلاقات بين الانسان والاله؟ انه الهدف الذي يرمي اليه بلزاك : «فلا بد من اعطاء أجنحة من أجل النفاذ الى الحرم الذي يختبئ فيه الله عن عيوننا» (المحظورون). فقد

حان الوقت لبناء الديانات على الكائن الداخلي الذي وصفه الجلال الأعظم فينا. انها غريزة شبيهة بتلك التي تملكها الحيوانات وان كانت أعمق وأسمى بموضوعها. لقد أشار بلزاك الى بداية الحدس الذي يبسط المعرفة ويصل الذات الفردية باصداء الكلمات الالهية أي فكر الله أو وعيه لذاته.

ذلك أن «الكلمة تحرك العالم» و «الايمان هو الشعور بالله ولا بد من الاحساس بالله». ويرجح هذا اليقين القائم على التجربة على كافة الدلائل التي قدمها الفلاسفة. انه الايمان اللاهوتي الفلسفي الذي يتصل بواسطته الخلق بكامله بصورة مباشرة مع الأفلاك العليا. و «كل شيء يتحدث وينصت فوق هذه الأرض الفانية» ويساهم في هذا الاتصال البدائي مع الخالق. الحصاة، والضفدع والزهرة والفكرة، وهي زهرة روحية والغيوم تتصل مع الكلمة الالهية وفق صيغة من الأخوة. وتتحرك دون توقف لتحقيق الوحدة الكبرى. وقد بلغت الانسانية المتمثلة في الخنثى سيرافيتوس – سيرافيتا (Séraphitus-Seraphita) الى المرحلة الملائكية والتجرد عن الجسد وفق نظرية سويدنبرغ (Swedenberg) وهي تحقق بتحررها التدريجي من المادة تحولاتها النفسية الروحية الاخيرة التي تعدها للتكامل مع المبدأ الشامل. وكلما اقتربت من هذا الانتصار عبر التجارب الأرضية والترفع كلما خفت طبيعتها وتخلصت من أثقالها فتصبح قادرة على القيام بكافة الأعمال (preternaturels) الطبيعية الخارقة التي عددناها. ويتم هذا التسامي بفضل الطاقة الطبيعية المتوفرة لدى كل فرد.

وتنتقل الفكرة من فلك إلى فلك اعلى حتى تبلغ نهاية مصيرهـا وهنا تتم معرفة فحوى الفكرة الأولى التي تفرعت ونجمت عنها بقية الافكار. ويرمز تدرج يعقوب (Jacob) وصراعه مع الملاك إلى الجهود الارادية. ولا شك أن فكرة بلزاك الاساسية تتلخص في احدى البديهيات التي اعلنها لويس لامبير (Louis Lambert)«ان الانسان بتوحيده بين جسده والفكرة البسيطة يستطيع أن يبلغ الحقيقة في نفسه» وهكذا نجد أن الملهم الصغير قد بدأ بانتقاد الحقائق المسيحية بصورة سلبية. وعرض عن طريق البينات فرائض حول مادية الفكر وقوته المغنطيسية.

تتقدم سيرافيتا في ميدان المعرفة. وتدفع في الفصل المسمى بنجوم المحرمات بيكر (Becker) الراعي المتشكك إلى الاعتراف بعجز العقل عن النفاذ إلى اللغز الذي يحيط بالعالم وحل قضايا المصير. وتدرس وجود الله الذي تنص عليه فكرة اللانهاية التي ترافق الانسان وتلاحقه. وتجمع بحمى عنيفة تفنيد النظريات التقليدية والتناقضات الناتجة عنها التي اخذ بها او دحضها الماديون والروحيون. وحين تعتقد انها ردت على كافة حججهم تبدأ بعرض نظرياتها مستندة إلى يقينها القائم على التجربة ومعرفة الاله. انني اؤمن بالله لأنني شعرت به. آه للمهزلة! ألا تبدأ كافة العلوم باعلان مبدأ؟ العلوم الفيزيائية التي تعترف بوجود قوة متمايزة عن الاجسام، قوة تعطي هذه الاجسام قدرتها على الحركة لا تعرف شيئاً عن طبيعة هذه الحركة وتكتفي بالحكم على آثارها. اذن كيف يمكن لذكائنا ان

يجد في هذه الطرق وسيلة المعرفة حين يتعلق الأمر بالله بوجوده وبجوهره؟ ان علة الايمان شخصية اما موضوعها فغير قابل للبرهان. وهو يعتني ببعد وعمق يتناسبان مع حرارة ايمان كل شخص.

ويدلنا الفصل الثامن من سيرافيتا واسمه الطريق الموصل إلى الله (Le chemin pour aller à Dieu) على الوسيلة الوحيدة التي نملكها لبلوغ مرحلة الملائكية: انها الصلاة. ويصف لنا بلزاك مطولاً كمال وروعة الرؤى التي يعتقد انه قد حصل عليها مكافأة على ايمانه اللاهوتي الفلسفي. وقد صرخ قائلاً من يُفهمكم عظمة وروعة وقوة الصلاة؟ وتدل هذه العبارة على سمو روح اذهلها التأمل: فهي تتذوق بيقين مبين «اكثر الملذات طيبة» «واعذبها». «ملذات النشوة الالهية». ونحن نعرف جيداً أن المؤلف قد عبر عن هذه الرغبات الملتهبة، وهذه التطلعات وهذه الرؤى الالهية بكلمات وعبارات مأخوذة بصورة حرفية عن مؤلف صديقه القديس مارتين (Saint Martin) رجل الرغبة. وهذا يدفعنا إلى الشك بأن هذه الفورات والشطحات تجاوزت النطاق الادبي. ولكن هذا لا يمنع أن بعض القلوب الباحثة عن الله قد وصلت اليه بفضله. كما حصل للرسام الهولندي فركاد (Verkade) المنتمي إلى مجموعة نبيس (Nabis) فقد نقلته قراءة سيرافيتا إلى عالم خارق ودفعته على طريق التقوى والورع الذي قاده إلى دير بيرون (Beuron) حيث قدم نذره. والجدير بالذكر أن كافة الاديان «مؤثرة» وهي تقود جميعها إلى الغاية النهائية. فقد كان سان مارتين يرى أن تأملات الالهام الصوفي تسكب في الروح نور

الحب الابدي وزيت الحبور الداخلي: وكان بلزاك يحدد آثار هذه الديانة بقوله: «ان هذا المذهب يعطي مفتاح العالم الأزلي ويفسر الوجود بتحولات تقود الانسان إلى مصير رائع ويحرر الواجب من تدرجه القانوني ويسلط على آلام الحياة نعومة الصاحبية التي لا تزول ويأمر بالترفع عن الآلام باضفاء لا ادري اي عاطفة امومة على الملاك الذي نحمله إلى السماء. انها الرواقية وقد بات لها مستقبلها. ولا شك ان الصلاة المستمرة والحب الصافي يشكلان عناصر هذا الايمان النابع عن كاثوليكية الكنيسة الرومانية والمهيأ لاعتناق مسيحية الكنيسة الأولى»(الزنبق في الوادي (Le lys dans la vallée). ولكن لا شيء يمنع من التمسك بالكاثوليكية والتقيد بتعاليمها كما فعلت هنرييت دو مورسوف (Henriette de Mortsauf). وسنرى فيما بعد اهمية هذه الحرية في الخيار.

* * *

من الضروري معرفة اصل وطبيعة هذه الأفكار كما يعرضها بلزاك في لويس لامبير (Louis Lambert) اذا اردنا فهم دورها الأدبي وبعد الرواية الفلسفي. لقد قامت هذه المبادئ على مادية الفكر والارادة وعلى جوهرها. فالأفكار هي انبعاث، وتحولات رائعة في الجوهر الانساني «والجوهر الكهربائي» «والجوهر الفيزيائي» التي يتشكل منها الكائن المحرك أي «الكائن الداخلي في اعماقنا» الذي يجمع هذه الماهية بتقلصه ثم يقذفها بحركة ثانية إلى الخارج او يعهد بها «إلى اجسام مادية»: وتخلف هذه الوفرة من البينات الفكرة

وتتركها في الاماكن غير المعروفة من الأعضاء حيث تتولد : ولا يعطينا هذا الفيض من الصور أي تحديد لطبيعة «تلك التيارات». ويقول بلزاك لمن يمكن أن ننسب – ان لم ننسب اليه – هذه القوة الخفية التي تنتصب في النظرات لتصعق العقبات بأمر من العقل؟ والسؤال الذي يطرح نفسه الآن هو هل أن الروائي يصف نفسه وقد عصفت الافكار في داخله. كان يغمض عينيه فتراكض اليه فهل كانت تمنح نفسها له غامضة ام واضحة. هل كان يفتح عينيه؟ فتتطاير جماعات في الهواء حوله. خصوصاً وان «اصغر التفاصيل وادقها» يؤكد صحة الفكرة بتفسيره الفوري لها. وكان هذا التمرين يتكرر بنسبة مرتفعة مع بلزاك. فنحن نعرف انه كان يذهب بعيداً في مراقبته للأشياء وينطلق من الوصف بكل ظلال فوارقه ليصل إلى ادق اموره. كان يلاحق الفكرة ويطلع على ادق دلائلها. وتتحول كافة الاشياء الى افكار لديه لأنه يعتبر الفهم هو الرؤية المسبقة «باختصار العلل» هو الرسم هو التفكير. فالفكرة تحرك الشيء المادي هذا الشيء الذي يثير الأفكار بدوره. فهو يشكل ارتجاجاً لها في الفضاء. وتملك هذه الافكار بذاتها وبالآثار التي تتركها في الرؤية الداخلية حياة خاصة بها. انها تشكل فينا نظاماً متكاملاً شبيهاً بمملكة الطبيعة–نوعاً من الازهار... «انها شبيهة بالنجوم اللامتناهية التي لا تحصى. وهي تعيش ايضاً في الخارج. تطاردنا وتلاحقنا وتعمل احياناً بصورة منفردة واحياناً بصورة جماعية». وتظهر المغامرات المديرة للفكرة السعيدة ١٨٣٤

Les aventures administratives d'une idée heureuse

التي رويت بحمى شـيـطـانـيـة هـازئـة احدى الافكار وقد ارتفعت وتعاظمت وابتلعت واكلت الرجال والنساء والاطفال والآمال والثروات عبر العصور. ويعتبر الروائي الحالم بطبعه أن الافكار تتحول إلى عبق عطور وألوان واصوات واشكال. ويطلق الفنان اثناء تأمله عقلانيات وراء الفكرة تصقلها كحجر كريم تنشر كل صفحة من صفحاته اشعاعات لماعة. ومن المفيد الملاحظة أن الكردينال مرسييه (Mercier) الفيلسوف الكبير قد رد «نجاح بلزاك إلى خصوبة مخيلته». التي شجعتها وغذتها تصورات الفكرة العـاطفيـة (علم النفس المجلد الثالث ص ١٧١ الكـان) (Psychologie TIII, 171 Alcan) ولنأخذ امثلة على ذلك أن «شهوة الراعي بيروتو» (Birotteau) تدفع إلى اعتباره شاباً يتأمل باعجاب المرأة التي سيحب: كعاشق يودع عشيقته الأولى بحنان اوكعجوز يلقي النظرة الاخيرة على مزروعاته التي عني بها بنفسه.

حين تنتقل الآنسة كامار (Melle Gamard) من الانتقام السري إلى العداء المفضوح للراعي بيروتو «لم يشك هذا الأخير لحظة واحدة انه عاش في ظل حقد سلط عليه نظراته وراقبه باستمرار». وسرعان ما يتخيل القارئ طائراً مجنحاً صغيراً وقد افتتن وسحر بكاسر جارح. وتبدأ الضحية تقارن الآنسة غامار (Gamard) بالكواسر فتلمح في كل لحظة اصابع الآنسة المعكوفة والمحددة الجاهزة دائماً لتغرز في قلبه. وتمد الاشكال اجنحتها وتحدد جوانبها وتدور في حقل الرؤية وتملأه بالدوائر المهددة: وهكذا ينتهي التطور. كانت العانس

فرحة بحياتها التي يغذيها شعور مليئ بالانفعالات الشعور بالانتقام فكانت تسعد في التحليق حول الكاهن والتنقل عليه كما يحلق الطائر الكاسر حول ضحيته قبل افتراسها. ولا تهمل أي مرحلة من مراحل الصيد: «فقد وضعت الآنسة منذ عهد بعيد خطة لم يكن بوسع الكاهن المذهول تبينها، خطة سرعان ما باشرت بتطبيقها». من لا يتذكر ممن راقبها، مناورات الصقر وقد ضيق من حلقات طيرانه قبل الانقضاض على عصفور جمده الرعب في الارض؟ بتوقفنا لدى اهم شخصيات الكوميديا الانسانية تتضاعف لدينا امثلة الانعكاس التي توسع القوام والحركات وتمدها حتى النجوم أن لم ترمها في اعماق وغياهب اللجج.

انه العمل الرهيب الذي يدور تحت سقف الأب غرانديه (le Père Grandet)، انها مأساة بورجوازية لا سم فيها ولا خنجر، مأساة لا يراق فيها الدم ولكنها تبدو على ابطالها اقسى من كافة المآسي التي ارتكبت في عائلة اتريد (Atrides) الشهيرة. ان الآنسة اسكرينيون(Melle d'Escrignon هي التي «تخلف اخاها ومذاهبه ومعتقداته المهدمة». تفهموا خيبة املها لرؤية ابن شقيقها فيكتورنيـــان (Victurnien) الماركيز يعقد زواجاً غير متكافئ مع وريثة بورجوازية. وتبدو في حزنها «اعظم من اي وقت مضى» شبيهة «بماريوس وقد وقف على اطلال قرطاجة» انها بييريت لــوريــن (Pierrette Lorrain) التعيسة ويكفي لاعطاء بعد كبير لقصتها التذكير بأن بياتريكس سانسي (Béatrix Censi) قد

عذبت لأنها نقلت الحدث في العصور الوسطى في روما. عذبت بنفس الملاحقات والترمت والأهواء المقززة التي ادت ببييريت إلى القبر. انها بون (Pons) الساخر الذي يعمد لاشباع حبه للروائع القديمة إلى اعمال تخدم السفراء في تحديد ابطال التحالفات. «انها كاموزو» (Camusot) القاضي الذي يبحث كامرأة عصفت بقلبها الغيرة عن كافة الاحتمالات لاشباع حبه للحقيقة، وينقب عنها بخنجر الشك كما يشق الكاهن بطن ضحيته».

غالباً ما تلجأ الفكرة إلى الصورة التي تلون بطل المأساة الجارية فتعطيه قناعاً جديداً وترفع من شأنه وتفضح للعيون بتنويع مراحل الدور ألوان الفكر وقضايا المشاعر. وتخرج من هذه التطورات الشاعرية شخصية اقوى ارهف احساساً، شخصية تثري بالتعابير وبالظلال الملونة. وهكذا يكشف لنا بلزاك عن اهوائه الفكرية انه يرغب في انفاذ مادة ادراكه دون أن يتوصل إلى ذلك. فالمادة تتولد بصورة اكثر وفرة من مخيلته. وقد دلنا الروائي بقوله: خلق الفكرة واضفاء الشاعرية عليها، واغناء الشعر بالافكار وتعظيمها على القدرتين اللتين تجذبان كقطبين مغنطيسيين العناصر التي تغذي فكرة الخلاق.

لا شيء يستدعينا هنا للانتقاد الفلسفي للنظام الملهم ولا للقضايا النفسية الفيزيولوجية. ولنأخذ بعض الأحكام التي صاغها بلزاك بنفسه. لقد أكد في لويس لامبير (Louis Lambert) ثم في المقدمة (Avant-propos عام ١٨٤٢ أن فرضياته «حول العالم

الأخلاقي الجديد» لا يمكن قط أن « تـؤثر على العلاقات الأكيدة والضرورية القائمة بين العالم والله» ولا «ان تهز المبادئ الكاثوليكية». ويتناقض هذا الادعاء مع دور الرسول البسيط الذي منحه ليسوع المسيح وتفسيره المغنطيسي الصرف لمعجزاته. فقد حرم صانع هذه الخوارق من ألوهيته ومن عظمته، بحظره الرحمة الرافعة والمقدسة فالكاتب لا يحتاج اليها في خوارقه الجذرية.

كـانت الفكرة الاساسيـة ليسوع المسيـح في الفلانـدر (Jésus Christ en Flandre) توفر وسيلة مصالحة وسط هذه الآراء المتناقضة. فهذه الرواية خيالية في جزئها الأول، صوفية في جزئها الثاني وقد احتفظ كل من الجزئين بمعناه. فكان الثاني خفياً وكان الأول فلسفياً. لقد صدر الجزء الأول في نسختين الصفر (Zéro) ورقصة الحجارة (la danse des Pierres). وتدل هذه العناوين على رمز ناطق. فكنيسة فرنسا كانت تساوي عام ١٨٣٠ الصفر. إنها امرأة عجوز غرقت في الجدول، وقد وصفها أحد المارة «بانها مستديرة كالقلنسوة.. انها سوداء وفارغة». لقد بدت الكنيسة المؤسسة الالهية التي تشكل وفق قول مؤسسها تحد مستمر للقوى الضارة على مر العصور منهارة. لقد تحولت الى فكرة، كما كانت قبل تشكلها بسبب العادات والاصرحة. لقد كانت «الكمال الأول» أي قوة متحركة قوة فعالة أبطل مفعولها، ففكرة الشك والريبة تسيطر على فكرة الايمان وتستعيد رقصة الحجارة (la danse des Pierres) نفس الفكرة. فبعد سقوط شارل العاشر يشهد بلزاك

إحتفال يوم السبت الليلي في إحدى الكنائس. فيرى أن كافة أجزاء المبنى تتصدع وتبدأ بالتراقص على أصداء الأرغن التي تعزف. ويشكل هذا الحلم «رؤى مؤثرة للأفكار الدينية وهي تفترس بعضها البعض وتتهاوى فوق بعضها البعض وقد هدمتها الريبة والجحود التي تشكل بدورها أفكاراً». ولا يعد بوسعنا أن نفاجأ برؤية الأفكار «هذه القوى الحية وقد انتصبت ضد بعضها البعض وتصارعت فيما بينها. والجدير بالذكر ان بعضها يتلف لافتقاره الى القوة أو الغذاء». ولكنه نادراً ما يموت. ويبين الجزء الثالث من يسوع المسيح في الفلاندر كم هي معمرة. لقد هجرت النفوس المتطلعة الى تقدم المعرفة والكمال الكاثوليكية فيما بقي البسطاء «والمنبوذون من المجتمع وهؤلاء المطرودون من جامعاتها ومدارسها اوفياء لمعتقداتهم وحافظوا مع صفائهم الروحي على قوة هذا الإيمان الذي ينقذهم في الوقت الذي يرى فيه الأناس المتفوقون الفخورون بقدراتهم الكبيرة أوجاعهم تزداد مع تزايد خيلائهم وآلامهم تتعاظم مع تعاظم إلهامهم». (المقدمة الى الدراسات الفلسفيـــــــــــــة) (Introduction aux études Philosophiques).

وما زالت فكرة الإيمان تملك احتياطيها وتتطلع الى تحقيق روائع حضارية. ذلك أن المؤلف بدلاً من أن يتوقف عند استنتاجه المتشائم يتبنى موقف المطلعين. فهو يشجع الشعب على اعتناق الكاثوليكية في نفس الوقت الذي يحاول فيه نشر عقيدة الوحي التي تشكل بالنسبة

إليه كل الحقيقة. فالباطنية المارتينية والسويدنبرغية تغذي الكائن الكامن في أعماقه وتجعله يحيا.

أما فيما خص المادية الرومنسية التي يملأ بها لوحاته من ديكور إلهي ومواكب ملائكية وتناغم موسيقي بين الكواكب ومزاهر ذهبية وقيثارات وتراتيل وأنوار سماوية إلخ.. فقد اعترف بنفسه لنوديه (Nadier) أنها تشكل «أوهاماً يجب أن يغذي نفسه بها وأنه يبقي نظرياته النفسية الفيزيولوجية منفصلة. إنها رؤى شاعرية يضفي عليها حساً انتشائياً». وقد عمد في سيرافيتا الى وضع التأمل الديني والرؤى الفنية وأحلام النوم في مستوى واحد، فهي رغم اختلافها في وسائلها إلاّ أنها تؤدي إلى نفس الشيء السامي، إلى الكشف الذاتي عن هذه الخفايا العظيمة التي يلتقي فيها الفكر بالمطلق.

ويمكننا أن نتساءل هل كان بلزاك يؤمن باله خاص؟ ذلك أنه في الوقت الذي كان فيه الخنثى سيرافيتا ينزع غطاءه« الارضي ويقترب من ضفة السماء على شكل ملاك تحول الى «نقطة لهب» وبدأ يطلق هذه العبارة: «أيها الخالد، أيها الخالد، أيها الخالد!» فيمتلك في هذه اللحظة اللانهاية؛ هل تدل هذه العبارة على الجوهر الوحيد الذي يتحول إليه كل كائن حي، سواء كان مادياً أم روحياً، ليتكامل في حالته الأولى مع الروح الشاملة، النقطة التي انبعث منها؟ إلاّ أن بلزاك كان قد أنكر مراراً إيمانه بوحدة الوجود، ورغم هذا فان أفكاره تبقى مختلطة حول هذه النقطة كأفكار بعض المؤلفين

المعاصرين مثل لامرتين (Lamartine) وجورج سانـد (George Sand) وموسيه (Musset).

لقد فتحت سيرافيتا أمام الجيل الرومنسي ، الذي أُلقي فريسة للأوهام وخابت آماله في بحثه عن السعادة الوحيدة ، طريقاً يرتفع الى الرجاء الإلهي لدفعه إلى التخلص من كآبته . وتعتبر هذه الأوذيسة اللاهوتية مع لويس لامبير (Louis Lambert) أساس الأفلاطونية الحديثة . فقد درج إسم مؤلفها بلوتين في قائمة المؤلفين التي سمح لامبير لنفسه بقراءتهم . والشبه كبير بينهما سواء فيما خص الله أو الكلمة أو انبعاث الروح الفردية وعودتها الى الروح الشاملة ومبادئ الفضيلة والصلاة . ورغم بعض المظاهر فهناك بعض الخلافات الأساسية التي تفصل هذه الفلسفة وتميزها عن العقيدة المسيحية وهذا الأمر لا يقتصر على علم لاهوت الثالوث بل يتجاوزه الى المذهب الأخلاقي والصوفي الذي يؤدي الى الإتحاد مع الله ... ويعتبر هذا الاتحاد ثمرة التجرد ، الفكري لا النعمة التي لا « تملك فيه أية حصة » . كذلك الأمر بالنسبة لجهود الارادة ، لأن الفضيلة ليست إلاّ تفحص الروح لعنصر غريب هو المادة . وهذا أمر يتم بصورة شبه آلية .

في نهاية فيزيولوجية الزواج la Physiologie du mariage يدعي مهاجر عجوز أنه أتى من ألمانيا بمذهب المسيحية الشاعري والاستعلائي . ولنفهم من هذا أن فكر بلزاك قد تأثر بهذا التيار اللاهوتي الفلسفي فقد درس بعض مؤلفات يعقوب بوهم

(Jacob Bœhme) وإقتبس الكثير من موجز مؤلفات سويدنبرغ (l'Abrégé des œuvres de Swedenberg) وأخذ عن كتابين لسان مارتان رجل الرغبة (l'homme de désir) ووزارة الرجل الروح (Ministère de l'homme-Esprit) واطلع على سحابة فوق المقدسات أو شيء لا تعرف فلسفتنا المعاصرة الأنانية بوجوده لايكارتسهوزن (Eckartshausen). كذلك خضع لتأثرات معاصرة أخرى مرتبطة باللاهوت الفلسفي الآتي من المانيـا : السيـدة ستيـل (Mme Staël)، الكاهـن انـسيون (Ancillon)، بادر (Baader) دون ذكر الطبيعيين والفلاسفة. والسؤال الآن هل اكتفى بلزاك بتعميم نظام الملهمين؟ رغم شغفه باسلافه حاول بلزاك الحكم على حبورهم «بالمنهجية الديكارتية» وتوضيح نظرياتهم الضبابية «وان يدخل ضمن حدود المنطق هذا السيل من العبارات الغاضبة». وكما حاول التوفيق بين اللاهوت الفلسفي والكاثوليكية كذلك عمل على الجمع بين الالهام والجذرية العلمية فهذه نقطة وُصُولهم. لقد لاحظنا غالباً التناقض القائم بين الصوفية الخفية ومادية الفلاسفة أعضاء المجامع العلمية الذين يحظرون كل تدخل غامض في نظام الطبيعة بينما تحفل المارتينية بهذه الأمور. وقد اكتسبت لغة المراسلات التي تربط بين كافة الكائنات انطلاقاً من ذرة الرمل إلى الكوكب نوعاً من القوام والكثافة. لقد قَبل بلزاك بوجود استمرارية فيزيائية عبر كافة الكرات وقد تحدثنا عن هذه السلسة من

العلل التي انتقدها جوزيف دوميتر (Joseph de Maistre). وهي تتوغل حتى العالم الماوراني بفضل كمال قدراتنا المنتظر .

لقد أثر ما كان يدعوه بلزاك بالصوفية بعمق على حياته ومؤلفاته. فقد كان هو الذي يميل بطبعه الى الافراح المحسوسة، الشهوانية يسعد بالتحليق في أجواء الأثير، وقد بقي رغم «انطلاقاته العظيمة» معادياً لممارسات العبادة الدقيقة.

لقد أعلن في ٢١ حزيران ١٨٤٠ رسمياً للسيدة هانسكا (Hanska) أن هذه هي ديانته، وقال لها في ١٢ تموز ١٨٤٢ أنها تشكل أعماق فؤاده. «أنت تعرفين تماماً حقيقة مذاهبي فانا لست بأرثوذكسي ولا اؤمن قط بالكنيسة الرومانية. واعتقد انه إذا ما كان من أمر يمثل جدارتها، فهي التحولات الانسانية التي تدفع الكائن نحو مناطق مجهولة. فهذا قانون المخلوقات التي تقل عنا شأناً، لذا لا بد أن يكون قانون المخلوقات الاسمى درجة، مذهب سويدنبرغ الذي يعتبر بالمفهوم المسيحي تكراراً لأفكار قديمة هو ديانتي مع ما أضفت من حجج حول الادراكية لله». لقد كان يفتش عن شيء مختلف فلم يجد لحماية آماله أكثر امناً من العودة الى الكنسية القديمة الذي غالباً ما رده إليها اعجابه وافتتانه؛ كالعصفور الذي يحط بعد أن أتعبه تحليقه الطويل الجريء على الصليب الذهبي للجرس الذي عرفه ويحيطه بجناحيه.

لقد قدم بلزاك قربانه الأول بعد ان اعترف في ١٤ آذار ١٨٥٠ في بولونيا خلال احتفال زواجه بالسيدة هانسا. وعند عودته

الى باريس أصر على استدعاء كاهن كنيسته وتحادث معه طويلاً ويقول الدكتور ناكار (Nacquart) «لقد أصبحت الديانة التعبير الأسمى عن الكون». وتناول العليل بيديه مسحة الموتى صباح يوم الأحد في ١٨ آب مشيراً إلى ادراكه لما يجري حوله. وقد غالبه الأجل في تمام الساعة الحادية عشرة والنصف من ذلك المساء.

* * *

لم يكن بلزاك يجد أي تناقض أو غضاضة في هذا الجمع بين الصوفية الخفية والكاثوليكية. بل أكثر من هذا كان يعتبر أن هذين الشكلين الدينيين متكاملين بصورة فعالة وضرورية. لقد كانت الصوفية تحل مكان العقائد وتعطيها نوعاً من القيم والمفاهيم العلمية حول المغنطيسية وعلم النفس الفيزيولوجي والتطور. ولم تكن هذه العقيدة الأثيرية تستبعد قط امكانية المساهمة في قانون الأخلاق الكاثوليكية الظاهري. وفي شعائره. وتعود تصريحات سويدنبرغ التي ذكرناها إلى نفس عهد تأليف أورسول ميروويـه (Ursule Mirouêt) التي ظهرت في آب أيلول ١٨٤٢. وقد عبرت هـذه الروايـة عن هذه الحالة النفسية واستغلت معطياتها. ونجد أن الروائي يستخدم شخصيات مثالية لينفخ فيها معتقداته فتنتقل هذه من حياته الى مؤلفاته. وتصبح الصوفية مادة فنية. وغالباً ما تختلط مع الخيال إلاّ أنها وإن كانت تهدف إلى تحقيق نفس الآثار الناتجة عن الخيال تتميز عنه بموضوعها الذي يتطرق إلى العلاقات بين الروح والرب أو مع مناطق المطلق بواسطة الأعمال الفاضلة. وحين يدخل بلزاك

أحداثاً خارقة في العقدة الرومنسية فان هذه الأحداث تتخذ بنظره قيمة مثبتة ومقنعة ، فيما تتسم بنظرنا نحن بصبغة من الجدية والخطورة التي تعطي القصة طابعاً أعمق. ونأبى بتدقيقنا اعتبار هذه الوقائع المستغلة كوسائل درامية لتقوية وتأزيم المناورة وإعداد تطوراتها المحتملة وإن كنا نعرف أن بلزاك كان يعتبرها ممكنة ويؤكد أنه قد شهد وقوع مثيلها حقيقة ويدفعنا هذا الأمر إلى الالتزام بعفويته ونتمسك بها للدخول في انقياد الأبطال.

ولا بد لنا من التذكير أن بلزاك قد أكد في رسالته إلى نوديه (Nodier) (١٨٣٢) على الاحـــداث النفسيـــة في (oneiro-critique)، وعلى «روبصة الكائن الداخلي» و«مظاهر النوم الغريبة» التي ينعدم فيها المكان والزمان. وقد جاءت أورسول ميرويه (Ursule Mirouet) بعد تسع سنوات لتكوّن الاستعمال الرومنسي لكافة هذه النظريات. لقد سرق مينوريه لوفروه (Minoret Levrault) ثم احرق وصية عمه الدكتور مينوريه (Minoret) التي يعطي فيها كافة أمواله لربيبته اليتيمة. فيظهر الميت للفتاة عدّة مرات في منامها ويكشف لها عن أعمال مينوريه لوفروه (Minoret Levrault) الجرمية التي اساءته ويدلها على وسائل استعادة حقها. وتتمكن أورسول من هذا بفضل مساعدة الكاهن شابرون (Chaperon) تمثل أورسول الورع وترمز اليه. ويستمع الكاهن إلى ما تسره اليه برضى كامل دون أن يشك لحظة واحدة بصحة ظهور الميت لها والأوامر التي يعطيها من العالم الثاني. بل أكثر

من هذا يتخذ من كافة هذه الأمور حجة لدفع المجرم مينوريهلوفروه (Minoret Levrault) إلى التوبة وإصلاح الخطأ. وتلعب الصوفية الخفية دوراً كبيراً في الرواية.. وقد استخدمها بلزاك ثانية في ابن العم بون (le Cousin Pons) (١٨٤٧) حيث عرض لنا آراءه حول التنبؤ والرؤى والظواهر المثبتة والحقيقة الناتجة عن العلوم الخفية. والجدير بالذكر أن نوديه قد ترك في سمارا (Smarra) مكاناً للخيال والغرابة كذلك فعلت جورج صاند (George Sand) في ليليا (Lelia). ونحن نعرف أن الرومنسيين كانوا شغوفين بهذا النوع من الآداب. ومـا يستحق الملاحظـة في أورسول ميروويه (Ursule Mirouet) هو الجمع الحميم بين عاملين الأعمال الخارقة والكاثوليكية الصرفة. ويرمي تفسير هذه الظواهر إلى حل ما تسميه الكنيسة الكاثوليكية بالمعجزات بواسطة لعبة القوى الطبيعية غير المعروفة جيداً بعد أي ارادتنا واستمرار القدرات بعد الوفاة. ويجمع الكاهن شابرون (Chaperon) نموذج كمال الكهنوت والإيمان الكامل بين هذه الهبات السامية والعلم وانفتاح الأفق. وهو لا يتردّد لحظة واحدة على التصديق بارادته الدينية على صحة هذه الظواهر الغريبة الخارقة. وهو يوضحها لاورسول بنظرية بلزاك حول الأفكار هذه الكائنات التي تملك لذاتها حياة خاصة في العالم الروحي، «وهي ذات أشكال تعجز حواسنا الخارجية عن تلقفها وإن كانت حواسنا الداخلية تتحسسها حين تتوفر بعض الشروط» لقد «احيطت» أورسول أثنـاء نومها بأفكار الدكتور وأفكار منيوريه لوفروه

(Minoret Levrault) المجرم. ورأت الأفعال التي تشكل هذه الأفكار جوهرها ذلك أن الزمان والمكان ينتفيان أثناء نومنا. ونجد أن هذه الأحداث تحل الأزمة النهائية بعد أن حضرت لها وسببت الاضطرابات والبلبلة والحوادث المفاجئة.

تشكل الصوفية الخفية أهم دوافع الكوميديا الانسانية فغالباً ما لجأ إليها الروائي في وضع العقدة والسمات، فكم من الشخصيات قد ملكت مثل هنرييت دو مورسوف (Henriette de Mortsauf) وأورسول ميرووية (Ursule Mirouet) من قوى وملكات خارقة أو خضعت لتأثيراتها مثل الأم سيبو (Cibot).

- ٣ -
الاستغلال الجمالي والرومنسي للكاثوليكية

ظهرت في شهر أيلول من العام ١٨٣١ رواية الكنيسة (l'Eglise) ضمن الروايات والحكايا الفلسفية بعد ان شهد بلزاك في الأيام التي سبقت الاحتفالات بـ ١٤و ١٥ شباط الجماهير الهائجـــــــة تسرق كنيسة سان جيرمـــــــان لوكسروا (Saint Germain l'Auxerrois) وتنهب وتحرق قصر الاسقف. لقد شهد روائع الفن القديم تمتهن وتباد! لقد رأى الأثاث الاستهلالي (الذي يعود إلى ما قبل عام ١٥٠٠) والمطبوعات النادرة تلقى في نهر السين. لقد أثارته مظاهر الوحشية في احتفالات يومي إثنين وثلاثاء المرفأ «عيد المجانين الجديد» ووصفها في رسالته عن باريس التي نشرت في السارق (le Voleur) يوم ١٨ شباط: «هذا ما كانت عليه الكاثوليكية عام ١٨٣١..» ان لم تكن هذه الرؤيا الفظيعة السبب المؤثر في التقارب بين بلزاك والكنيسة فمن المؤكد انها تثبت النتيجة. وهذه النتيجة ألم يشر اليها في شهر أيلول من العام ١٨٣١ في رواية الكنيسة؟ «هذا هو الوضع الدقيق الذي رأيت فيه اروع وأعظم وأصدق وأكثر الأفكار الانسانية عطاء» وكانت هذه الفكرة قد بلغت ابعادها في فكر المفكر. ويستدعينا هذا الأمر إلى استرجاع نظرية بلزاك حول الأفكار فـ «الفكرة تستنفذنا أحياناً بولادتها

الطويلة وتضنينا ، تنمو وتثمر وتكبر مستقلة عنا بفضل الشباب وقد تزينت بكل خبرات ومكتسبات الحياة الطويلة : وهي تجابه أشد النظرات فضولاً تجذبها دون ان تثير فيها أي ملل. فتفحصها يولد الإعجاب الذي تثيره المؤلفات التي أعد لها طويلاً» لقد انفتحت كلمة «كنيسة» أمام عيون الطفل كما ينفتح الألبوم الملون الذي تتضاعف في كل صفحة من صفحاته الروائع «فالكلمات تحيي في دماغنا بسيمائها المخلوقات التي تمثلها وترمز اليها» لننظر إلى هذه الرموز وهي ترتفع الواحدة تلو الأخرى وتملأ بالصور مفهوم الكاثوليكية. ذلك ان هونوري ما زال يحتفظ في مخيلته بالاحتفالات التي رافق والدته إليها.

ويذكر ترتيلة الشكر إبان الانتصارات الملكية في كاتدرائية تور، ويتأثر بالاناشيد المقدسة، ووجود الحبر الأعظم وتوهج حلة الكاهن فيسترجعها بكل ظلالها في العديد من وصفه. فغالباً ما كان هذا المراهق الذي يبلغ الرابعة عشرة من العمر يعود ليحلم وحيداً في ظل بناء حجري ضخم ويهيم في ظل جناح كنيسة بحثاً عن الرعشة المقدسة «وسط رهبة الصمت الفظيعة والروعة الدينية... وصوت الأناشيد الدينية المؤثر الذي يحركه جرس الكاتدرائية» لقد قرأ بلزاك في الرابعة عشرة من العمر «الرسائل البناءة» ويبتهج خياله الصغير في اللحاق في الآباء المبعوثين في البراغواي وهم يتوغلون في الغابات العذراء لهداية المتوحشين. ويستمع إلى ابيه يؤكد رغم إلحاده ان «لا شيء يوازي الكنيسة الكاثوليكية سياسياً في حسن عملها من أجل تقدم الأنسانية والاتحاد العام في سبيل تحقيق عدالة متساوية لكافة الناس».

وقد أتت النصيحة ثمارها فقد امتدح الكاتب الشاب في إحدى أولى مؤلفاته «تاريخ اليسوعيين بلا تحيز» في عام ١٨٢٤ نجاح الآبـــاء بناة القرى النموذجية «الرسل والمشرعين».

«هل ظهر في العالم دليل أفضل لبرهان ان الدين المسيحي المطبق إذا طبق بامانة يقود الدولة إلى السعادة» هذا هو حجر الزاوية الذي بنى عليه المفكر نظامه السياسي الإجتماعي.

وهذه هي القاعدة الأولى التي وضعت عام ١٨٢٩ في غشاء الكآبة «اننا ندين لـ(Pater noster) بفنوننا و أصرحتنا وعلومنا والخير الأكبر حكوماتنا الحديثة...» ويمكن لهذه العبارة ان تشكل فكرة رواية الكنيسة حيث تعدد كل المؤلفات التي وضعها رجال الدين في العلوم والفنون والأدب والبر من أجل تقدم الإنسانية.

في كانون الثاني ١٨٣٢ حقق بلزاك خطوة حاسمة بانتسابه إلى حزب الشرعية الجديدة ونشر ضمن مجموعة من القطع الأدبية الزمردة، (l'Emeraude) مقالاً عاطفياً حول رحيل شارل العاشر وعنوانه الرحيل «لقد أبحرت معه على السفينة الفنون الحزينة» ويتخذ كلمة الكاثوليكية التي غالباً ما كان العجوز المبعد يلام بها، كل بعدها وتتزين بكل حلاها: «الترف والفنون والفكر» كل هذه الأشياء الجميلة التي تصنع وطناً قوياً وعظيماً. فالميول الى البذخ هي أرستقراطية وملكية بجوهرها. ماذا يمكن لحكومة بورجوازية ان تعطي؟ فالملك الشرعي قادر على إنقاذ فرنسا فهو يملك امتياز السلطة الكبيرة التي تعطي المال «الضروري للتجارب التي لم تثمر بعد

وغزوات الفكر البطيئة والهام العبقرية» وتدور كافة هذه الآمال في رأس الكاتب الذي بدأ يعرف الشهرة. لقد بدت الكنيسة كالملكية ملهمة الفنون وحامية لها وحاضنة للفنانين.

وتمثل الآن كلمة كنيسة «مجموعة» من الأفكار التي تهاجمه بلذة، وتنشر إحداها تيارها عليه- وفق نظريته- ذلك ان العمل يعزوه بالحصول على كرسي نائب. فيعد ترشيحه وينشر في المجدد (Le renovateur (٢٦ ايار و ٢ حزيران ١٨٣٢) جريدة الشرعية الجديدة نوعاً من البرنامج الإنتخابي: ابحث حول وضع الحزب الملكي ننقل منها هذا المقطع: أن افضل مجتمع هو ذلك الذي يوفر الخبز للبروليتاريا ويقدم لهم الوسائل الضرورية للتعلم والتملك في نفس الوقت الذي يضغط فيه على التجاوزات المحتملة للقسم المعاني من الأمة في مواجهة القسم الميسور أو الثري.

«الا يشكل الدين أقوى وسائل الحكومة لدفع الشعب إلى القبول بالامة والعمل المستمر في الحياة؟ وأخيراً هل يمكن ان تقوم ديانة لا رموز لها ولا نشاط ديانة فكرية صرفة؟».

«تكمن كافة العقائد الملكية في هاتين الفكرتين ضمنياً، هاتان الفكرتان اللتان يمكن اختصارهما بالديانة الكاثوليكية والملكية الشرعية».

«أن الشرعية هذا النظام الموجود من أجل تحقيق سعادة الشعوب اكثر من هناء الملوك ناتج عن عدم استحالة حكم الشعب حين

تعترف الدولة بحقوق متساوية للمعدم والغني، للجاهل ولذلك الذي يملك قوة فكرية».

«تملك الكاثوليكية سلطة على الاحداث ذلك أنه في الوقت الذي تعجز فيه الافكار الفلسفية عن قهر السرقة نجد ان صورة يسوع المسيح والسيدة العذراء رمزا التضحية الضرورية لبقاء المجتمعات تبقي مجموعات كاملة في دروب التعاسة وتدفعها إلى القبول بالفقر والعوز...».

وهكذا يبدو الحزب الملكي عقلانيا من الناحية الفلسفية في عقيدتيه الأساسيتين: الله والملك. فهذان المبدأان قادران وحدهما على إبقاء القسم الجاهل من الأمة ضمن أطر حياتها الصابرة والمنقادة .

يقضي هذا التفسير للمسيحية بقسوته على مكانة الرحمة والحب الأخوي الذي أوصى بها حين نادى بحب الله. ويبرهن رجل الديالكتيك ان نظريات الحكم المطلق السياسي المأخوذة عن بونالد (Bonald) وجوزيف دوميتر (Joseph de Maîstre) تؤدي إلى توفير راحة الطبقات العاملة ورفع مستوى العائلة وتقدمها هذه العائلة التي تشكل الخلية الإجتماعية الأولى دون ان نعثر فيها على زبدة الحنو الإنجيلي.

يشكل طبيب الريف (١٨٣٣) بحثاً خيالياً عن التطبيقات العملية لهذه النظريات السياسية الإجتماعية في ميدان حكم وإدارة إحدى المقاطعات فتحسنها وتحييها اقتصادياً واخلاقياً. لقد جاءت

النتائج رائعة بعد ان حطمت وقهرت كافة العراقيل مسبقاً. وفيما يلي موقف (Bénassis) طبيب الريف والمتحدث بلسان بلزاك ومحقق هذه التحولات : «كنت أعتبر في السابق الديانة الكاثوليكية مجموعة من الآراء المسبقة والخرافات المستغلة ببراعة والتي يتوجب على الحضارة الذكية إنصافها وبت اليوم أعترف بضرورتها السياسية ومنفعتها المعنوية واتفهم قدرتها عبر قيمة الكلمة التي تعبر عنها ذاتها. الديانة تعني الرابطة والعبادة أو بكلمة أخرى تشكل الديانة البينة القوة الوحيدة القادرة على الربط بين الفئات الاجتماعية وإعطائها شكلاً دائماً. وأخيراً لقد بت اتنشق الطيب الذي تمسح به الديانة جروح الحياة، لقد احسست دون مناقشتها أنها تتوافق بشكل رائع مع اهواء سكان البحر المتوسط : ماذا يجدي التعليق على العبارة الأخيرة! فلاحظة الوقائع والنتائج التاريخية والأحاسيس تكفي لتقرير الإلتحام بالكاثوليكية المعنوية. ماذا يجدي النقاش؟ ماذا يجدي الانسياق خلف الماورائيات؟ فالمدافع عن العقيدة النصرانية يتعرض للكنيسة في كاهن القرية (١٨٣٥) من أكثر نواحيها ايجابية وروعة : المنافع الأرضية والترقي المادي والنظام الاجتماعي. فالراعي بونيه (Bonnet) يطمح إلى تحقيق كافة هذه الأمور حين يحلم في دير سان سولبيس (Saint Sulpice) بمهمته التبشيرية الجديدة ويصل إلى ضرورة اختيار بقعة مجهولة «ليبرهن فيها بتجربته ان الديانة الكاثوليكية هي القدرة الحضارية الوحيدة الحقيقية وهذا عبر منجزاتها الإنسانية» فيختار لذلك ضيعة منسية في أعالي الليموزين Haut Limousin

ألمونتينياك (Montégnac التي يعتبر سكانها من المتوحشين فيتوصل هذا الكاهن الريفي البسيط بجهوده وعزمه على تحسين حالة الأرض البوار وأوضاع الناس المتخلفين. وتدل تجربة مونيتيناك Montégnac) كتجربة فوريب (Voreppe) ان الديانة الكاثوليكية هي العامل الاجتماعي الأول وضابطة الأهواء الوحيدة. وغالباً ما كان بلزاك يستند إلى هذا التحديد الذي اورده للمرة الأولى في طبيب الريف «الكاثوليكية هي نظام كامل لكبت الميول المنحرفة لدى الانسان» الأمر الذي يمكنها من التحول «إلى وسيلة صالحة للحكم» و «ضرورة سياسية» و «السلطة الوحيدة القادرة على محاكمة السلطات المدنية والسياسية» وفرض الطاعة الشرعية والقانونية على الجماهير.

واننا لنتساءل هل يشير تأمل كاهن (Montégnac) مونتينياك حين يتكلم عن الكنيسة – «المتمثلة عبر أعمالها الإنسانية» – وقول بيناسيس (Bénassis) : دون مناقشتها – أي الكنيسة – على التحفظ الذهني لدى بلزاك؟ هل كان يقصد القول بأن الحقائق العقدية لا تتسم بأية أهمية بنظره؟ والجواب هو بالطبع. ونحن نعرف ذلك. فهذه النصوص لا تحتاج إلى أي تعليق وهي تعكس فكرة الكاثوليكية التي تمثل نظاماً أخلاقياً واجتماعياً. فبادئها هي اساطير خصبة وغزيرة فالقربان المقدس مثلاً يمثل رابطة الأخوة والمشاركة الشاملة...

يضم العرض الكامل للنظام الكاثوليكي البلزاكي عدة فروق من الآراء. ونخطئ باتهام الكاتب بالجهل الديني نظراً لبعض الأخطاء

في التفاصيل عند تحليله القضايا الضميرية والطقوس الشعائرية
تأمل مطولاً في المعطيات العقائدية الكاثوليكية الأساسية كما ت
عبارات عديدة. فقد ورد مثلاً في التعاليم الدينية الاجتماعية
الكاثوليكية هي أكمل الديانات لكونها تندد بدراسة الأمور المفه
فيها وتقبل بواسطة الكنيسة بالمكلات الدينية القديمة التي ترمي
التقرب من الله بصورة أوثق. ويشهد ما فعله المراطقة في أو
لصالح الكاثوليكية. فالوحي مستمر في الكنيسة وجامد
الملحدين». لقد رفض عن وعي سلطة الكنيسة المعلمة دون أن
هذا في إبراز كل العظمة الكامنة فيها.

لقد خف بسرعة تصلب محافظته ولان مع شعور الشفقة ا
نفخه سان سيمون ولامنيه في قلبه إزاء الطبقات العاملة. ويملك
بلزاك كمثلهم سان بول (Saint Paul) وفينيلون (énélon
القدرة على التعاطف مع الآخرين فهم كهنة فنانون يؤمنون باله
المستقبلية، فرجال الدين جانفييه (Janvier) و
(Bonnet) وشابرون (Chaperon) وبروه
(Brossette) يجمعون بين مهامهم الأسقفية والمصالح الش
ويمتلئ قلبهم حنواً وشفقة على الفقراء والبؤساء والمنبوذين من المجت
ويشير بلزاك إلى نفسه في الكتاب المقدس (e livre Mystique
حين يكتب في دوقة لانجيه (١٨٣٥) «حين جمل لامارتين ولا
(Lamenais) ومونتلامبار (Montalembart) وغيرهم
الكتاب الموهوبين وزينوا بالأشعار أفكار الكنيسة وجددوها وأثرو

كان هؤلاء الذين يفسدون الحكم يثيرون الشعور بمرارة الديانة». وقد بلغ به الأمر إلى الأسف في مقال نشره في المجلة الباريسية في ٢٥ أيلول ١٨٤٠ لرفض بلاط روما أخذ «الجرعة المقوية إكسير» الديموقراطية الكاثوليكية الذي قدمه له لامنيه (Lamenais). ذلك أنه بتكييفه «هذا الإصلاح» مع الظروف وباخراجه من صلب الكنيسة يجعله صحياً فينقذ بذلك العروش . وقد كتب في التعاليم المسيحية الاجتماعية فصلاً سماه الرق «نبصر عبيداً أرقاء غير مسمين، عبيداً أكثر تعاسة من الأرقاء أنفسهم، أكثر بؤساً من العبد لدى الأتراك أكثر يأساً من العبد لدى القدامى أكثر شقاء من الزنوج» أنهم عمال المصانع الذين يتركهم أرباب عملهم يفنون من الجوع والعناء وقد سبق للامنيه (Lamenais) أن تأثر بمصيرهم البائس وخط عام (١٨٣٨) نقداً عنيفاً في الرق الحديث (de l'esclavage moderne) وكان بونواستون دو شاتو نوف (Benoiston de châteauneuf) وفيليرميه (Villarmé) العضوان في أكاديمية العلوم الأخلاقية والسياسية قد انتدبا من قبلها عام ١٨٣٢ لإجراء تحقيقات حول وضع العمال في الفبارك. وقد افتتح في نفس الوقت زميلهما الفيكونت دو فيلنوف – بارغمون (Vicomte de villeneuve-Bargemont) الحركة الاجتماعية الكاثوليكية. وقد اتبع بلزاك دربهم فأشار إلى احصائيات بنواستون (Benoiston) حول عدد اللقطاء من الأطفال وأعرب عن اعجابه بهذا العالم (فيزيولوجية الزواج ١٨٢٩).

وباشر عام ١٨٤٢ بنشر الجزء الأول من الوجه الآخر للتاريخ المعاصر حيث أشار إلى بعض العلمانيين الأبرار الذين انتظموا في جمعية إحسان تحمل إسم «اخوة المواساة» وبدأوا بتضميد الجروح الاجتماعية في باريس بتقديمهم العون لكافة الطبقات من الفقراء والعمال. وقد عمد أحد الأخوة ألان (Alain) ليتمكــــن من دراسة حاجات العمال وتحسين شروط عيشهم المادية والمعنوية إلى العمل كرئيس للعمال في إحدى الفبارك التي أصيب عمالها بعدوى العقائد الشيوعية وباتوا يحلمون بتقويض المجتمع وخنق الأسياد فتمكن بهذه الوسيلة من الدخول إلى منزل مئة أو مئة وعشرين فقيراً الذين أضلهم البؤس قبل أن تنبههم الكتب الفاسدة. وقد كان لهذه «المؤسسة الوليدة» أمثالها المتعددة والحقيقة في الكنيسة الفرنسية في المنتصف الثاني من القرن التاسع عشر، وقد استفادت هذه المؤسسة في شروط قيامها وبداية عملها وإحسانها من المثل التي وفرتها جمعية القديس فنسان دو بول (Saint Vincent de Paul) التي أسسها فريدريك أوزانام (Frédéric Ozanam) وجمعية الإقتصادالخيرية التي ترأسها الفيكونت أرمان دو مولون (Armand de Melun) فنحن نجد كافة أعمالهم المحسنة ومبادراتهم الطيبة وقد انجزتها جمعية إخوة المواساة فقد كان بلزاك يعرف مولون وقد التقى به كما يقول هذا الأخير في مذكراته في السهرات الأدبية التي كان ينظمها الأمير ميتشيرسكي (Metchersky) الأمير الشاعر الذي كان يعتبر قصره منتدى يلتقي فيه كافة رجال القلم.

إذن يمكن اعتبار الوجه الآخر للتاريخ المعاصر (١٨٤٢ - ١٨٤٨) قصيدة الإحسان المسيحي وفصلاً من تاريخ الكنيسة في فرنسا. وتأخذ الرواية كل معناها في التعليمات التي توجهها السيدة لاشانتيري (La Chanterie) رئيسة هذا المعهد ومن بعدها عميد الأخوة ألان (Alain) إلى غودفروا (Godefroid) إلى المتدرب الجديد أي الراهب طالب الخدمة كالايمان العميق والتوكل التام على الله والخلود له، «كن أداة طيعة في يد الله، وانكر حب الذات وتجرد من كل غرور ومداهنة في الذات»، وأخيراً ممارسة الفقر حتى العوز عن قناعة وصرف كافة الأموال الشخصية وتوزيعها كصدقات. وقد وردت ضمن هذه التوصيات ضرورة التواضع والخضوع بعد الأمر بالصلاة. وفي الوقت الذي ينشر فيه الإخوة أعمالهم الحسنة يقدمون أنفسهم على أنهم وكلاء ومندوبي شخص مؤمن فصدقاتهم لا ترمي إلا إلى حب يسوع المسيح عبر أجسام أخوته المرضى، فهذا الإحسان الفعال هو تعبير واضح عن الحب الداخلي والأبدي «فنحن نعتبر أن للشقاء، والبؤس، والألم والمعاناة والشر مهما اختلفت أسبابها وتباينت الطبقات الاجتماعية التي تظهر فيها نفس الحقوق، فالبائس مهما اختلفت آراؤه أو إيمانه هو بائس ويتوجب علينا ألا ندفعه إلى التطلع إلى الكنيسة أمنا المقدسة إلا بعد إنقاذه من اليأس أو الجوع وعلينا أن نهديه بمثالنا وحنونا لا بأية طريقة أخرى فنحن نؤمن أن الله يسدد خطانا في هذا السبيل وأن كل ضغط سيء». وقد ارتفعت السيدة شانتيري (Chanterie)

إلى قمة الكمال ليس فقط بخضوعها وصبرها في شقائها بل بترفع عفوها عن جلاديها «إنها صورة حية للتسامح».

لقد اعتاد إخوة المواساة على قراءة ومناقشة فصل من المحاكاة والتعمق فيه ليعايشوا الألم ويعتادوا صعوبات العيش من أجل حب يسوع المسيح وتعتبر رسائل القديس بولس كتابهم الاجتماعي الوحيد «فمن الضروري أن يستطلعوا بقلوبهم ويلموا بعقولهم بالمعنى الأزلي للرسالة حول الإحسان» قبل أن يباشروا ممارسة مهمتهم. وهكذا يضعنا بلزاك في قلب الفوطيبعية المسيحية الصافية فهو يملك الفكرة التي تتيح له الفهم الكامل لمعنى الكاثوليكية أي الأخوة المسيحية صفة القديس بولس وتمثل كافة المسيحيين بالسيد المسيح وتشبههم به بواسطة العفو.

ونجد أن بلزاك يميز تماماً بين مفهومين جمع بينهما يسوع تحت إسم الحب فيما سماهما القديس بولس الإحسان. فمن الإحسان أو من حب الله الذي يتيح لنا الإتحاد مع الرب ويعطي أعمالنا قيمة تقديرية يتولد حب المستقبل أو الإحسان إليه الذي يبرز من خلال أعمال الشفعة الروحية أو الدنيوية.. وتتخذ هذه الأعمال بعداً أبدياً بفضل النعمة الإلهية. وتولد بين الأشخاص الذين يتوحد بينهم الإحسان الكاثوليكي «شعوراً كبيراً مطلقاً لذيذاً». يولد صداقة رائعة مترفعة عن كافة الصغائر وكل حساب ذميم. صداقة تكون رابطة الأسرة الصغيرة التي ترأسها السيدة لاشانتيري (La Chanterie) : فالرجال الخمسة يكنون لهذه السيدة حباً روحياً «تسمح به الديانة» ويثير

مثل هذا اليقين الحماس في النفوس فيملأ غودفروا (Godefroid) الشعور بالحياة وتتضاعف قواه عشرات المرات «فالحياة هي أن تعيش من أجل الآخرين وتعملون معاً كرجل واحد، وتعمل وحدك من أجلهم جميعاً! الحياة هي أن يكون الإحسان رائدك وأن يكون مثالك أجمل الصور التي أخذناها عن الفضائل الكاثوليكية». لقد اكتشف غودفروا هذه القوة العظيمة حين رغب بنكران ذاته وتناسيها فعوضته عن «تضحيته» وما يؤسف له فعلاً هو اغتيال الفردية منذ الثورة «للتجمع» «إحدى أهم القوى الاجتماعية» التي أحلت التجرد مكان الإحسان والرحمة. ونرى أن بلزاك يستغل كافة الفرص للتنديد بالبذل في سبيل الانسانية. وردها إلى الخيلاء والزهو وهو يعتبر «ان الديانة المسيحية هي الوحيدة القادرة على توفير النظام» الضروري لبقاء أي تجمع سواء كان للإحسان أو لغيره. و«لا يمكن لأي تجمع القيام على غير الشعور الديني الذي يروض الأفكار المتمردة والحسابات والجشع بكل أنواعه».

يعبر مفهوم الكاثوليكية الواردة في الوجه الثاني للتاريخ المعاصر عن فضيلة البر الصافي التي ترينا في كل إنسان شقيقاً لنا وتدفعنا إلى حب الآخرين ومساعدتهم. وقد تعمق هذا المفهوم منذ عام ١٨٣١ منذ كتب بلزاك نهاية كاهن تور (Curé de Tours) وبدأ متشككاً حول مطلب الكنيسة الحقيقية من شمولية الإيمان والمدارك. «ألا تشكل المواطنية العالمية التي ترنو إليها روما المسيحية خطأً جسيماً؟ صحيح أنه من الطبيعي الاعتقاد والإيمان بتحقيق مثل هذا الوهم

الجميل حول الاخوة بين الناس ، ولكن الآلة الانسانية لا تملك للأسف هذه الأبعاد الإلهية الجميلة. فالنفوس الكبيرة القادرة عم التحسس والمقتصرة على الرجال العظماء لا تتوفر قط للمواطن العاديين البسطاء ولا لأرباب العائلة». فأي عالم لاهوت لا يقب بشكل مطلق بالشمولية الفردية. ويبدو أن بلزاك لم يكن يعتقد في ذلك الوقت بامكانية تحقيقها وحتى في حال اقتصارها على عد ضئيل من الأشخاص في مختلف بلاد العالم. فهو لا يعتقد بقدر وحدة الإيمان على خلق أخوة شاملة لدى كافة الأشخاص الذين يؤمنون بنفس المذهب. ونجد أنه بعد أن بين تطور الشعور بالايثار على الصعيد الطبيعي : العائلة والقبيلة والعشيرة والمدينة والطبقة والديانة يجد في الوطن موئلها النهائي. فالانسانية والعالمية هي أفكار لا يتفهمها إلاّ قادة وحدهم مثل بطرس الأكبر وإينوسان الثالث(Innocent III)

لم يتوقف فكر بلزاك منذ ذلك الحين عن تفحص الثروة التي تمثلها الكاثوليكية بالنسبة إليه. فقد اصطبغت الكوميديا الانسانية منذ عام ١٨٣١ حتى النهاية بالأجواء المسيحية.. وحين يهاجم أحد الأبطال الكنيسة ويتعرض لها فان الهدف يكون إتاحة الفرص لآخر بان يبرز ويبرر ويمدح الأعمال التي قامت بها.

هل نغالي باعتبار بلزاك أحد المدافعين عن العقيدة النصرانية؟ وإلى أي حد يمكن اعتباره كذلك؟ نلاقي الجواب هو التساهل بمسؤولية تحملها الكاتب إرادياً وغالباً ما صرح بها كما في الفتاة العانس مثلاً (La vieille fille). لنفصل في الخلاف بين

أفكاره ومعتقداته المارتينية وتعليماته ذات الطابع الكاثوليكي. إن بلزاك كغيره من الكثيرين من علماء الفلسفة واللاهوت كان مقتنعاً أن هذه الإزدواجية لا تلطخ إيمانه ولا تنال منه ولا تضعف قط قوة موقفه ولا حجته في الدفاع. بل كانت تزيد من نزاهة دفاعه برأيه. ويمكننا إذا شئنا أن نأسف لأفكاره هذه ولكن هذا لا يمنعنا من اعتبارها واقعة يجب الأخذ بها. فهي توضح سبب تأليف بعض الروايات على الصعيد الأدبي وتبين إشراقية بلزاك على الصعيد الأخلاقي والديني. وأنا لا أفاجأ قط حين سألتقي بها بعد لحظات وقد تقمصت روح هنريت دو مورسوف (Henriette de Mortsauf) الكاثوليكية المتصوفة كما تدخلت في روح الراوي في مجاهرته بالإيمان الكاثوليكي. وما زال النقاد بعيدين عن امتلاك كافة النقاط التي يتقدم ويتحلل بها العقل الذي لا يمكن تقديره وفق المعطيات العادية، الدلائل على عظمته وقدراته الكبيرة. فهذا العقل يمكن أن يمثل على خريطة مجسمة ترتفع فيها قمم جبلية تتعرض لها الواحدة بعد الأخرى دون تمهيدها. وموضع الخلاف هنا هو كاثوليكيته.

فلا علاقة لمشاهد من الحياة الخاصة، أو طبيب الريف أو الحظر أو بياتريكس أو دوقة لانجيه ومجلس القدامى أو قيصر بيروتو أو الفتاة العانس أو كاهن القرية أو الموظفون أو الوجه الآخر للتاريخ المعاصر (باستثناء ملاحظة صغيرة) أو للفلاحين أو غيرها من الروايات الأخرى بالاشراقية. فهي تمثل لوحة للعادات الارستقراطية والبورجوازية في ظل عودة الملكية وحكم لويس فيليب. فهذه

القصص الخيالية والمقاطع من الحياة الواقعية كانت تثير أحكام المؤلف فيعبر عن آرائه ويؤيد ويدين. فتتخذ الفضائل والنقائص والأهواء والشوائب والعادات أشكالا حية وفق النماذج المعاصرة. فدوقة لانجيه (Langeais) مثلاً تمثل رياء ومكر اللياقة في المجتمع المخملي الباريسي. ويمكن تطبيق الصيغة «هل تريدون أن تمنعوا عن سيدة من البلاط الملكي الطاولة المقدسة حين يطلب التقرب منها في عيد الفصح؟ على الممارسات الدينية وغيرها من قواعد الحياة الاجتماعية، هذه المحافظة الملائمة للحزب السياسي الذي يريد أن يحصل من الديانة على قاعدة لبقائه في السلطة. وصف هذه المغالاة والرياء لا يعني تأييدهما وغالباً ما ندد بهما بلزاك وخصوصاً في فوبور سان جيرمن (دوقة لانجيه) فهو يسخر من السيدات المشهورات اللواتي نادراً ما يذهبن إلى الكنيسة في الوقت الذي يزينّ أحاديثهن بالعبارات المسيحية الجديدة العابقة بالسياسة». فهذه هي جهودهن الورعة، دراسة مختلفة للمرأة (Autre Etude de femme).

يلزم من يود تقدير مفهوم الكاثوليكية بصورة صحيحة لدى بلزاك التقيد بشرطين: لا بد من وضعه في عصره وعدم اعتباره وفق منطق المسيحي الحالي ثم أخذه ضمن الاطار الزمني مع مراعاة تطوره.

حين قرر بلزاك الدفاع عن الكاثوليكية كان شاتوبريان وجوزيف دوميتر وبونالد ولامنيه وفرايسينو (Frayssinous) وبلانش (Ballanche) قد مهدوا الطريق. فتبنى وسائلهم.

النصرانية في الإثبات في السنوات العشر الأخيرة بعد أن درسهم جيداً. وعندما رغب الكاهن جانفييه (Janvier) في هداية الآمر جينستا (Genestas) بين له أن الديانة الكاثوليكية تحافظ على «المنافع الأرضية التي تمسه مباشرة» (طبيب الريف) ويردد له أقوال المطران فرايسينو (Frayssinous) الـذي يـأسف للأخذ بالديانة، بسبب روح العصر «من زاوية علاقاتها مع المصالح الانسانية» فهي تسهر على الحفاظ على الأموال، وتستبعد الفوضى وتغذي الشعور بانكار الذات والتضحية لدى الفقير. أما فيا مضى الحجة المأخوذة من خصوبة الكنيسة في كافة الميادين من فنون وآداب وجمال مقدس فقد كان مأخوذاً به أيضاً في ذلك العصر. فقد استغله شاتوبريان وبلانش (Ballanche) ولاكوردير (Lacordaire) لأنه يتوافق مع الحساسية الرومنسية. ولا يحق لنا الانتقاد فهناك أناس يجذبهم إلى الدين الشعور بالجمال وقد كان عددهم كبيراً في الفترة الممتدة بين عام ١٨٣٠ وعام ١٨٤٠ ومن الخطأ انتقاد بلزاك والنيل منه وحده بسبب «كاثوليكيته الواجهية».

أضف أنه يجب علينا ألا نتجاهل التطور المستمر في أفكاره الدينية نحو المسيحية الجوهرية الصافية. كذلك لا يمكننا أن ننسى تمجيد الشعائر الدينية (الزنبق في الوادي، وربة الجمال في المقاطعة) ونزاهة قيصر بيروتو وانقياده الفوطبيعي وتأنيب ضمير فيرونيك غراسلين (Véronique Graslin) وتكفيرها القاسي واحساناتها الشعبية والتوبات المتعددة ومنها توبة الطبيبين بيناسيس (Bénassis)

ومينوريه (Minoret) تسامح البارونة الورعة هولو (Hulot) مع زوجها الخائن. وهناك خصوصاً براعم البطولة الرائعة لدى إخوة المواساة. فحياتهم الصوفية عابقة بتيارات القداسة وغنية بالفضائل الإلهية وحي الإيمان والرجاء والمحبة. وما زالت النفوس ترتاح إلى يومنا هذا في الخلود إلى هذا المكان. كم تطور منذ عام ١٨٣٠ ! ان الوجه الآخر من التاريخ المعاصر هو نهاية رواية الكنيسة. فهنا كلمتان مخصصتان للكنيسة والرهبان الذين «يخدمون الفقراء» فقد اهتم الفكر بتبيان تأثير الكنيسة على النتاج الجمالي على مدى العصور. وهناك لا يهتم قط بالخارج بالترف المقدس والغنى الظاهر للعقيدة ملهمة العبقريات الفنية. فكل جهود المؤمن التي تتجمع وتختبئ في السر الداخلي لتكمل جمال النفس والروح التي لا تطلع عليها سوى نظرات الله فيما تقوم دائرة الفقراء الأعضاء المعذبين في هيئة الكنيسة الصوفية بملء هذا الظلام بتفان أخوي يجعله ترفعه أكثر فعالية. لقد كان بلزاك ينتصر للإيمان الذي سواه التواضع وطرقته التجارب فجاء ثمرة للصلاة والتأمل لا بد لاقتطافها من الجدارة القائمة على الكمال والدلوف على طريق الصليب المقدس الملكي.

ويعتبر عدد كبير من الأشخاص أن تصريح عام ١٨٤٢ الوارد في المقدمة. «أكتب على ضوء حقيقتين أزليتين الديانة والملكية...» يتناول المفهوم الاجمالي للكاثوليكية الضيقة والدفاع عن المصالح الأرضية. ولا يمكن ألاّ يـكون الأمر كذلك كما يقولون لأن الوجه الآخر للتاريخ المعاصر لم يظهر إلا عام ١٨٤٨ وبعد مضي ست

سنوات على المقدمة. وهذا التحليل خاطئ. فقد اعترف بلزاك في ١١ أيلول ١٨٤٦ إلى هيبوليتَ كاستيل (Hyppolite Castille) «انني أتراجع منذ ست سنوات أمام العقبات الأدبية التي يصعب التغلب عليها» لإنهاء هذه الرواية. وحين ظهر المتدرب الجزء الثاني من الوجه الآخر أكدت ملاحظة أوردها المؤلف أنه بدا بهذا «وأن العمل قد بدئ في هذا المؤلف عام ١٨٤٠» أي قبل عامين من وضع المقدمة ولا بد من العودة إلى أساطير الصفر (Zéro) ورقصة الحجارة (la danse des Pierres) والكنيسة هذه الروايات الثلاث التي شكلت بعد ربطها فيما بينها رواية يسوع المسيح في الفلاندر (Jesus Christ en Flandre) فديانة عام ١٨٤٢ لم تعد «السراج الصغير»، الذي تتيح بالكاد شعلته المتهالكة للعجوز الصغيرة المقعدة، لكنيسة عام ١٨٣٠ أن تتلو قداسها في كوخ كئيب. لقد أصبحت شعلة ملتهبة تحيط بهالة ضوئية شابة ملائكية الجمال تحرك باتجاه المستقبل حساماً طويلاً من اللهب لتشعل العالم بإحسانها. هذه هي الاسطورة التي كانت توافق كنيسة عام ١٨٤٢ التي جسدها أخوة المواساة.

تمثل الكاثوليكية التي وصفنا تطورها في فكر بلزاك جوهر العقيدة التي تقترب أكثر وأكثر من الامثالية الضرورية لصحة تمجيداته وتبريراته. ولا تغير الاخطاء شيئاً في تغيير هذا النظام. فقد كان الروائي يستعملها لأهداف فنية ولإعطاء مؤلفاته الطابع الواقعي.

«تكرس الكاثوليكية في كل هيئاتها نضال الحياة الكبير وصراع الجسد مع الروح والمادة مع السماء. فكل شيء في ديانتنا يرمي الى القضاء على خصم مستقبلنا. انها الخاصة التي تتميز بها الكنيسة الكاثوليكية عن كافة الديانات القديمة. فعقيدتنا كما قلت في طبيب الريف هي نظام كامل من قمع الميول الفاسدة في النفس الانسانية. والسيدة مورسوف (Mortsauf) هي رمز لهذا الكفاح المستمر. فلو لم تلفظ الشهوة أنفاسها الأخيرة لما أصبحت وجهاً حقيقياً ونموذجاً للكاثوليكية». ونتوقع أن يتحول هذا التحديد الى روح الأشخاص الموزعين بين الايمان بين حساب الأزلية وانطلاقات الأهواء وخصوصاً الغرامية منها. ولكننا نصاب بخيبة أمل. فنحن لا نجد في الكوميديا الانسانية هذا الشاب المليء بالحيوية والنشاط الذي وصفه بوسويه (Bossuet) في مدح سان برنار (Panégyrique de Saint Bernard) الذي يندفع في رغباته لكنه يعرف كيف يسيطر على حماسه باتصاله مع النعمة الالهية التي تلهبه بقوة خارقة ليتمكن من الترفع عن غواية الشهوة؟ ولا ذلك المؤمن الذي وصفه بول بورجيه (Paul Bourget) في نزوات منتصف العمر (le démon du midi) هذا المسيحي العفيف الورع الذي تخبط طويلاً مع عقيدته قبل أن يستسلم لإغراء حب أثيم غرقت معه فيه كرامته كزعيم كاثوليكي؟ إن كاثوليكية بلزاك هي ديانة الرجال الذين خابت آمالهم وخدعوا في أمانيهم وهزمتهم الحياة انهم من العجز المرهقين المتعبين. فهؤلاء الذين يعودون الى الهداية

يهبون الله ما تبقى من حياة مضطربة ، منهكة ذاوية . ان تجربتهم تدفعهم أكثر من أي باعث خارق الى هذا التبدل حين يرون أنفسهم على درب الانهيار ويشهدون قواهم تتخاذل في ظل القرف . فهم لا يملكون الخيار فالعالم لم يعد يؤثر فيهم ولا بد لهم من كتابة كلمة النهاية «والديانة الكاثوليكية أفضل من ينهي القلق ويقضي عليه» . هكذا يتحدث الراعي جانفييه (Janvier) الى الآمر جينيستاس (Genestas) مبرهناً له كباسكال (Pascal) أنه يتوجب عليه أن يتحيز وأن يراهن .

«انني أسألك ما الذي تخسره بالأيمان بهذه الحقائق ويجيب جينيستاس (Genestas) لا شيء يذكر فيرد بلزاك . كم هي عظيمة الأشياء التي تخسرها بعدم ايمانك .» .

ويحب بلزاك وصف تطبيق القدم الكاثوليكي على الحضارة أنه مبدؤه الثاني في الخلق الأدبي . فبيناسيس (Benassis) وفيرونيك (Véronique) وغراسلين (Graslin) يتحررون بهذه الوسيلة من التأنيب الداخلي الذي يتآكلهم بعد ارتكاب الخطأ . كم كانت مؤثرة رؤية العراك بين الجسد والروح لو أن المؤلف التزم ببرنامجه . فهو يراوغ لتجنب الصعوبة فنحن نجد لدى بيناسيس لا مبالاة مطلقة ازاء المبادئ المسيحية وخيبة أملها هي وحدها التي تعيدها الى الله ونرى لدى غراسلين (Graslin) البورجوازية الكبيرة التي تدعي الورع ، نجد أن الرياء الذي تجيده يخفي الجريمة . «لقد خبأت أهوائي في ظل المذابح» فتتجنب بذلك أن تتيه في الفضيحة الرهيبة التي سببتها . فقد

جعلت من تاشرون (Tascheron) عشيقاً لها وهو عامل شاب يصغرُها سناً ،يقتل عجوزاً وهو يحاول سرقته لتأمين المال الذي يضمن له فرصة الهرب مع عشيقته الى أميركا. ويبدو هنا أن الايمان لا يتعارض مع رغبات الجسد فالمرأة لن تعرف الندم الا وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة بعد عشر سنوات من وقوع الحادث. وتعجز فيرونيك (Véronique) رغمْ العقاب الاليم عن محو ذكرى الملذات الآثمة من نفسها فندمها لكونها السبب في وفاة حبيبها يتقدم على شعورها بالإساءة الى الله. ولا بد من القول أن الكوميديا الانسانية «تكرس» انتصار الجسد على الايمان المخفق ولكنها تعوض عن ذلك بعرض شهد الندامة البناء والمؤثر في الحضارات..

ويختلف الأمر وفق بلزاك فيما خص السيدة مورسوف (Mortsauf). فهي تجسد هذا«الصراع المستمر»انهاوجه حقيقي ونموذجي للمرأة المسيحية التي ترنو الى خيانة زوجها الفظ. فهنا تتخذ فضيلة الكاثوليكية الزجرية كل معناها باعتبار أن هذا الكائن الملائكي هو زنبقة الوادي التي لم تذوها رياح منتصف العمر بانفاسها القاسية والتي يقتلعها الموت في بهائها الناصع.

غالباً ما وصف بلزاك في رواياته النفسانية الحالات النفسية التي تنتـــــــاب المرأة التعسة: امرأة الثلاثين (La femme de trente ans) ، الامرأة المهجورة (La femme abandonnée) الرسالة (Le message) جعبة القنـــابـــل (La Grenadière) السيـــدة فيرميـــاني

(Madame Firmiani). ويضفي في هذه الروايات التحليل الدقيق والرقيق للأحاسيس التي تملأ فراغ حياة إمرأة مهجورة، وزوجة غير مفهومة السحر على هذه الأقاصيص المفعمة بالكآبة الخفيفة والمكتئبة بالذكريات التي تقضي أحياناً نعومتها على المرارة واليأس. والجدير بالذكر أن الديانة لم تلعب أي دور في المأساة التي تقررت فيها سعادة السيدات بوزيون (Beauséant) ايقلومون (Aiglemont) والليدي براندون (Brandon) بل كانت الديانة مجهولة تماماً بسبب نوع من النسيان المهين الناتج عن مناورات العادات الاجتماعية. فهي لم تكن تملك أي دور في المواساة أو في دعم قلوب هؤلاء التعسات اللواتي آلمهن الهجران والاخفاق. وقد أكملت زنبقة الوادي (Le Lys dans la vallée) سلسلة هذه الصور برسم المرأة الورعة التي خابت آمالها. لقد رغب بلزاك في اعادة كتابة اللذة (Volupté) ١٨٣٤ للرد على مقال سافر لسانت بوف (Sainte Beuve). حيث يبين البطلان أموري وفيليكس دوفوندونسAmaury et Félix de Vandenesseأن الأنسان يعجز عن السيطرة على مشاعره بالحب الأفلاطوني ان لم تغمره المشاعر الدينية أو الايمان العميق الحي. ان بطلة اللذة (Volupté)السيدة دين دوكو (Mme de Couaën) تتعلق بتحفظ وحياء في صمتها المحصن فتمنع الشكوك من مراودتنا حول عزتها الشامخة. أما بطلة الزنبق السيدة مورسوف (Mortsauf) فانها تتعرض للاغراءات علناً حتى أنه يمكننا القول أننا لا نجهل شيئاً من عزة نضالها فقد عرضت

علينا كافة هذه المراحل بكل دقائقها. شهدت هذه السيدة التعسة المرهفة الاحساس التي تعذبها فظاظة زوجها المريض بخياله وعنفه، شعوراً ناعماً يملأها ويغرقها به بحب شاب معجب بها يخفف عنها بتفانيه واخلاصه. ولا يمنعها عن الاستسلام له سوى ايمانها بالمسيحية. ويكمن كل فن هذا القصصي في التحليل الدقيق للمشاعر وحدس الورع المتكتم والمتعاقب حيث يبين الحنو التلقائي أو المنسحق القلب أو المنقبض المنكمش العذاب الداخلي ويدل عليه. ونلاحظ أن لا قيمة للأحداث الخارجية فالخيال يعطي مادة شعرية. اذ أن العالم كله يعلم أن حب عاشقين يحول الصحراء المقفرة الى عالم مليء بالأحاسيس.

وتنقل الكاثوليكية هنا من الأخلاقية الاجتماعية الى الاخلاقية الفردية، من حدود المذاهب الى حدود قضايا الضمير. فتتحول «الصغائر الى أمور عظيمة». ذلك أن ضميراً تقياً كضمير هنرييت دومورسوف (Henriette de Mortsauf) يمكن أن يعتبر العبارة أو الهمسة أو الصمت أو الحركة أو المصافحة أو الابتسامة أو التنهيدة أو الفكرة التي لا يعتبرها المجتمع خفة، أخطاء جسيمة بناء على قول المرشد اذا نمت عن نية واضحة أو رغبة آثمة غير مكبوحة. فكل هذا يمكن أن يوفر للرفيق، للفارس الدليل على الانتصار المكتسب والمحقق على موجبات الايمان. وعلينا الا ندهش للوسائل التي يعتمدها الغاوي باعتبار أن بلزاك قد استغل كافة النظريات النفسية والحيل الناتجة عن التجربة ومنها الورع الرومانسي الذي

ينجح مع سيدة تقية. فالعاشق يأخذ من الطقوس الكاثوليكية عبارات التعبد ومن الشعائر المقدسة صفاء ومواقف خانعة ومن الصلوات دعوات تحول عن معناها الصوفي لتخدم عشق الجسد. ويتخذ القسم طابعاً عميقاً مؤثراً مأخوذاً عن العقوبة الأبدية المفترضة. ويتدثر ببخور مسروق من الألوهية الخالدة، وتنال هذه العطور من عناد المتمسكين بها وقد لجأ فروست (Fraust) الى هذه الوسائل الملتوية لسحر فريسته.

تشكل الأزمة التي تعاني منها هنرييت دومورسوف (Henriette de Mortsauf) وكفاحها الذي تتمسك به الحبكة الدرامية التي أعطتها الكاثوليكية للروائي. فنحن جميعاً نعرف الثروات التي استشفها كورناي (Corneille) من تعاقب العواطف التي أبدتها بولين (Pauline) ازاء بوليوكت (Polyeucte) لقد كان يسع بلزاك بنقله هذا الوضع الى المجتمع المعاصر أن يجعل بقدرته على المراقبة مؤثرة مراحل الثمل العاطفي والاضطرابات والنزاعات الداخلية. وبما أنه كان يرغب بانتصار الايمان على الجسد كان يتوجب عليه أن يبرز ذلك بصورة أفضل عبر الاغراءات والاعجاب والنهوض والدعم الالهي. ولكنه عجز عن ذلك فالفكر الخارق كان يعوزه. فهو لا يمتلك مفهوم الخطيئة أو الشعور بالذنب أو النفور من الغرائز الجسدية أو الرجاسة. كذلك لم يتفهم القوة والصلابة التي يبثها في النفس العفو المستحق بالنضال والجهد. لقد اكتشف في تاريخ العادات والاخلاق نظرية عادية لقد تعاظمت الكاثوليكية

ورفعت من قدر الحب ونقته وهذبته وزينته بالحنو. لقد جعل منها «مملكة مثالية مليئة بالمشاعر النبيلة والأمور البسيطة العظيمة والشعر والأحاسيس الروحية والتضحية والأزهار الاخلاقية والتناغم الساحر وأبعدها عن الفظاظة البذيئة حيث يذهب كائنان يجمع بينهما ملاك ترفعه أجنحة اللذة». إن هذه التأملات مقتبسة من بياتريكس (Béatrix) ونحن نسمع صداها في فيزيولوجية الزواج (Physiologie du Mariage) والعشيقة الكاذبة (la fausse maitresse) معكرة المياه (La Rabouilleuse) وفي بعض المقالات. وهي تدعي أن الغزل واللطف قد استغلا العفة المسيحية لتنويع وتجميل ومضاعفة ملذات الحب واضفاء المأساوية عليها. وأية ثروة تشكل هذه الكلمات بالنسبة لروائي، وكم هي كبيرة الامكانية التي يوفرها للعقدة وسواس الخطيئة «والثمرة المحرمة». يستند هذا المفهوم الرومنسي على مبدأ مزيف وخاطئ: يعتبر أن الشعور الديني يرهف حساسية فؤاد المرأة ويشعل لذة سقوطها عبر اثارة تناقض المشاعر ذلك أن كافة مخاوفها وكل ترددها يغرق في السعادة. «فالأمل بالعفو يجعلها عظيمة» وقد ذهب بلزاك الى حد اعتبار البروتستانتية وكأنها «موت الفن والحب» وهذا لأنه ينزه المرأة عن وسواس الاخلاق. وهذه الأفكار هي أفكار وثنية يبررها أحياناً الضعف الملازم للنفوس الباردة التي تمارس الكاثوليكية التقليدية السطحية الروتينية أو الرياء الاجتماعي كدوقة لانجيه (La duchesse de Langeais) وكان يتوجب عليه أن

يعرف بعد أن اختار كمثال للأمانة الزوجية الكونتيسة دومورسوف (de Mortsauf) الورعة التقية التي تقوم بواجب الاعتراف بصورة متكررة أن الخطيئة وان كانت فكرية لا تتعايش مع حب الله في قلب واحد. والاغراء الذي يصفه في حالته الحادة لا يمكن أن يدوم سنوات طويلة لأنه يعني العيش في توتر مستمر يقارب حالة الخطيئة المميتة.. وهذا أمر لا يقبل به أبداً. تخيلوا الوضع الذي يتوجب عليه ايجاد حلول له فكل ظروفه معروضة في رسالة هنرييت (Henriette) الى فيليكس (Félix) أعيدوا قراءتها. إن هنرييت تبلغ الثامنة والعشرين من العمر وفيليكس في الثانية والعشرين وهي متقززة من زوجها وهو ذو طبع مندفع وشهواني لا يكبح من جماحه أي رادع اخلاقي. وقد تلاقيا كثيراً خلال ثماني سنوات في عام ١٨١٥ وإلى عام ١٨٢٣ وحتى وفاة هنرييت. وهما يعيشان تحت سقف واحد ويتقاسمان ألفة بيت واحد خلال أشهر طويلة. كيف يسع هذه المرأة ادعاء المسيحية حين تذكي لدى صديقها التهاب مشاعره باعترافها له باضطراب أحاسيسها وتشعل رغبته بلقاءات خاصة على ضوء القمر أو في ظل خميلة متواطئة؟ كذلك نجد أن أحاديثها لا تدور ولا تتناول إلا موضوعاً واحداً: روعة الحب الصادق وجمال التفاني والتضحية وغالباً ما يقاطعها هو باعترافاته فتكتفي هي بالاجابة عبر نصف الاعترافات والتنهدات الشاعرية وعبرات الأسف وغضب الغيرة. فالواعظة الجميلة تدعي المعرفة وتؤمن بعكس ما تعلمه لعشيقها حول الحب المقدس. في هذا الوضع مغالاة في الخيال

وبالتالي استبعادية جامحة فبلزاك الذي كان يدعي اللجوء الى قاموس الحالات النفسية le dictionnaire des cas de conscience الذي كان مستعملاً من قبل الكهنة المسنين في عهده (الفندق الأحمر (l'Auberge rouge) لم يستطع الا الوقوع في الخطأ النفساني والفيزيولوجي... وهكذا نرى انه باستغلاله مأساة خاصة ناشئة عن المعتقدات الدينية قد تخلى عن الجمال الأدبي وسقط في الرواية المسلسلة.

تستعرض هنريت مُورسوف (Henriette de Mortsauf) حالاتها النفسية بانتظام لمديرها كاهن لابرج العجوز. فيبدي رغم «قسوته وتزمته» تسامحاً كبيراً فهو يسمح لها ليقينه أن بعد الحبيب يقتل الحبيبة، بالاحتفاظ به بقربها شرط أن تحبه محبة الابن. ويدل هذا العذر على رقة الذمي المكار.

لقد نصب بلزاك نفسه مرشداً فبدا أخرقاً رغم حسن نيته. ذلك أن المرشد والمعرف يبرزان كثيراً في الكوميديا الانسانية. كذلك يعتبر ضرباً في الخيال امكانية وجود انسان قاتم قادر على تدبير مؤامرات ودسائس كتلك التي يدبرها كهنة فانتانون (Fantanon) (العائلة المزدوجة (une double Famille)، ترويبه (Troubert) (كاهن تور (le Curé de Tours)، كروشيه (أوجنيه غرانديه (Eugenie Grandet) والقس هابير (Habert) ببيريت (Pierrette). ويدهشنا فعلاً أن تلجأ سيدة ذكية كالسيدة مورسوف بعد وفاة الكاهن العاقل والمتفهم دولابرج (de la Berge) الى الكاهن بيروتو التافه وتترك لها قيادة

روحها وايجاد حل لمشاكلها وهو الذي يكتفي بالتأثر لحالها بدلاً من توبيخها وتأنيبها. ويبدو مسلكه أمام فراش التائبة التي تعاني من سكرات الموت غريباً... فهي حين بلغت حافة النهاية انجرفت في هذيان شهواني وشدت اليها صديقها وصبت في أذنيه هذه الكلمات، كلمات طفلة صغيرة تطالب بالحصول على لعبتها.. «هل من المعقول أن أموت انا التي لم أتمتع بحياتي.. أريد أن أعيش.. أريد أن أركب الخيل بدوري.. أريد أن أعرف كل أشياء الحياة.. باريس، الأعياد، الملذات.. أريد أن أكون محبوبة.. سأمارس كل النزوات كالليدي دودلي (Lady Dudly) (منافستها).. وحين رأى الكاهن التعس هذا المشهد جثا على ركبته وتطلع الى السماء بتضرع ليختلط ترتيله بهذيان العاشقة.

لقد تفاوتت المواقف من مشهد النزاع الذي تخيله بلزاك. ونحن نعلم أن السيدة برني (Berny) وهذه سيدة ذواقة مجربة وحكيمة بآرائها قد انتقدته.. وإن كان بعض النقاد يعتبره من أجمل وأروع فصول الكتاب ويرونه رمزاً عظيماً وحقيقياً لحقيقتين متصارعتين الزوجة والعشيقة. أفلا يحيا الفن بالتناقض؟ لذا فان النفوس الحساسة تتأثر ليأس هذه المرأة التي ناضلت طوال حياتها للحفاظ على فضيلتها وشرفها.. هذه المرأة التي تتخلى فجأة عن مبادئها المسيحية التي سندتها طوال ثمانية عشر عاماً، تتخلى عنها فجأة حين تقف أمام الله وتؤكد أنها قد أخطأت خطأ فظيعاً.. لقد حرص الروائي على اعلام القارئ مرتين أن هذه التصرفات هي تصرفات جنونية وأنها تشكل تعاقباً بين

الانقياد الالهي واليأس الدنيوي ، وأن أريج الأزهار قد أثر على أعصاب المنازعة. اذن الأزهار هي التي سببت هذيانها وهي ليست مسؤولة عما جرى.. فالمشاعر السائدة على الأرض وأعياد الخصب ولمسات المزروعات قدأخملتها بطيبها وأيقظت في أعماقها مشاعر الحب السعيد التي تغفو فيها منذ عهد الشباب . أن هذه الحجج تافهة . ولا شك أن الروائي قد وعى هذه الحقيقة فلجأ ليقنعنا بصحة هذه الحالة النفسية الى مواعظ قسين وفرض علينا حكم طبيب وعرض لنا رأيه الذي نعرفه : الا أن كل هذا لا يقنعنا البتة . فاعتراف هنرييت دومورسوف (Henriette de Mortsauf) لزوجها قبل لحظات من وفاتها بحبها الأفلاطوني لفيليكس ، واعلان فيرونيك غرالين (Veronique Graslin) علاقاتها الآثمة بتاشرون (Tascheron) للكاهن خلال القداس تصدم الواقع واللياقة . وتقدم الكوميديا الانسانية المثل عن هذا النقص في التفهم للوقائع الروحية..

ويقدم لنا استر غوبسيك (Esther Gobseck) باسمها الحربي «الطربيدة» المثل النموذجي والغريب (روعة وبؤس العشيقات) . فقد تمكنت هذه العاهرة اليهودية التي وضعها كاهن مزيف كارلوس هيريرا (Carlos Herrera) في دير باريسي تربي فيه الشابات الارستقراطيات من أن تتقدم بقربانها الأول وتتعلم في نفس الوقت أصول اللياقة والأدب لتصبح بعد تحولها عشيقة لوسيان دو روبومبريه (Lucien de Rubempré) السرية ولترفعه الى قمة .

النجاح الاجتماعي والفرح وهي تحكم مثل نينون (Ninon) أو ماريون دولورم (Marion Delorme) أو سيدة من آل دوباري (Dubarry). وينافس بلزاك أوجين سو (Eugène Sue وبيغولوبرون (Pigault Lebrun) وتبكي القارئات الشابات ويعتقدن أن هـذه هي طبيعة الديانة الكاثوليكية ويعتبرن أن أفكار الحب الشهواني والزنديق ويظنن أن الادعاءات والغنج تتوافق في القلب مع الخشوع حين تتقدم المتناولة فخورة بزينتها وبجمالها نحو المذبح. نحو خطيبها الرباني، وسط الهتافات الصامتة التي تشعر بها حولها وقد غطت وجهها بمنديلها الزنبقي. ونحن لا ننتقد هذه اهتماماً بالأدب بقدر ما نعتبرها تحدياً للتفسير الصحيح والحقيقي والواقعي للمؤثر لحادثة شبه عادية: بساطة الايمان الذي يملأ قلب فتاة شابة. لقد كان الايمان المتولد عن الحدس والمشاعر، والوقف على الطبائع الفظة يرفض كل تحالف مع المنطق. وكان هذا يشكل الايمان الحقيقي العميق والوحيد بنظر بلزاك، الايمان الساذج. وقد ظن أنه قد حققهـا لدى هذه العاهرة ايستر غوبسيك (Esther Gobseck) ذات الطبيعة العفوية التي لا تملك حسابات صغيرة.. فحديثها الذي ينال من المنطق يتحدى كافة المستحيلات الجسدية والاخلاقية.

ولنلاحظ أخيراً أن المعطيات الكاثوليكية لزنبقة الوادي (Lys dans la vallée) مصبغة بالأفكار المارتينية التي تأخذ بها هنرييت دو مورسوف (Henriette de Mortsauf). ويتوجب اجراء دراسة عميقة لهذه الازدواجية الدينية التي تنطوي على تنافر

مطلق. فلهذه السيدة رؤى واحساس داخلي وهي تملك قدرة خارقة على رؤية ما يجري في منطقة أخرى بشأن مصير من تحبهم فهي تسمع صوتاً ناعماً يفسر لها دون كلمات وبواسطة الاتصال الذهني النصائح التي يتوجب عليها تقديمها لهم. وهكذا تظهر الحالة الصوفية التي توصل الصلاة الى الملهمين وأصحاب الرؤى. وقد تمكنت مرتين في حياتها من دخول المعبد الالهي. كما نجد أن قصر حياتها الداخلية مزين ومرصع بالصور الأدبية وهي في نفس الوقت الذي تؤمن فيه الى حد اليقين بقدرتها على الرؤى تدفع معرفها الى رد هذه الوقائع الدافعة الى التدخل الالهي. وهي متحفظة الى أبعد الحدود مع مرشديها تخفي عنهم معتقداتها المارتينية التي تبيح لها مثل هذه الخوارق العاطفية.

ويتوافق هذا الوضع مع وضع بلزاك تماماً. فهو يمنع من اعتبار البطلة مسيحية كاملة لذا نجد أن السؤال التالي يفرض نفسه علينا. الى أي حد يتيح هذا الوضع تأثير السر المقدس على نفسها؟ ان الزنبقة في الوادي (le Lys dans la vallée) يشكل نموذجاً كاملاً للنظام الديني الذي ينادي به المؤلف. أنه الكاثوليكية الشكلية والتقليدية التي نجد كمالها ونقاوتها في الرؤى المارتينية التي تبث في الروح الرغبة في القيام بنشاط اجتماعي غيري أي ما يسميه في الفيلسوف المجهول «الصلاة الفعالة». باختصار ان هذه الرؤية هي تحريف كامل لنظريته وان كانت هنرييت تمثل بصورة سيئة كفاح الروح ضد الجسد.

إذا رغبنا في تقييم المنفعة الفنية التي يطبعها الروائي في الشعور

المسيحي لا بد من اجراء مقارنة بين الزنبقة والشهوة الحسية فهما تختلفان باسلوبهما وسبيكتهما. وسانت بوف الذي يملك معرفة عميقة بالمبادئ المسيحية قد سبر بفضول الأدب المقدس وجمع الأريج الصوفي لبعض آباء الكنيسة ، فقد كان ذكاؤه المنطلق يراهن على قدرته في اختلاس أسرار الضمائر بعد أن عانت روحه من أزمة دينية. ألم يوفر له كل هذا القدرة على وصف العذاب الداخلي الذي يمزق المسيحي الذي يتجاذبه عبادة الشهوات والانقياد لها. والذي ارتعش في مصيدة الجمال الشهواني حين يثيره النير الذي يفرضه عليه حبه الأفلاطوني لامرأة فيتصلب فيـه القلب الثائر على القوانين الالهية؟.

لم يعان بلزاك قط مثل سانت بوف (Sainte Beuve) من عواصف الايمان ولم يزهد التعاون مع آباء الكنيسة ومؤلفي الكتب المقدسة ولا الصهارة المقدسة ولا رباطة جأش النسك التي تثيرها حتى في العبادة التي لا فعالية لها. فأنانية طبيعته الشهوانية قد أضعفت في كل رابطة جديدة فكرة التدنيس وهذا إن ملكها أبداً.

ولم يكن أي وهم ينال من رغبته ولنذكر كيف اندفع فيليكس في بداية الزنبق في الوادي (le Lys dans la vallée) وراء جنون الطباع التي تكشفت له فجأة وقدمت لجمال السيدة مورسوف اجلالاً يدل على حيوانية رهيبة. كذلك يثير تحفظ أموري (Amaury) العميق والطويل وعذابه الداخلي الشفقة. كم يبدو سانت بوف رصيناً في اندفاع العواطف حيث تخور الرغبة السيئة. فهنا يجعل الفن الإغراءات

أكثر مكراً. على عكس لجاجة بلزاك التي تبدو مستهجنة أحياناً، فالمأساة تدور إذا تجرأنا القول بصورة سطحية وتعطي آثاراً سهلة. وهذا على عكس النظرة المتسللة التي يلاحق بها العالم النفساني دون أي استثناء التعرجات والاضطرابات والاغراءات ومواربات الاغراءات التي تلي الانطلاقات الغامضة الهاربة. فهو يدوّن الجروح الفظيعة التي تتركها المحركات الملتوية في هذه النفس الضعيفة التي تنال من جوهره الكريم بسبب التصرفات الانانية الطائشة وإن كانت غنية بالعطاء والكرم. وهو لا يغفل عن أي استحواذ أو تسلط أو وسواس أو ضعف صغير أو سقوط كريه يتبعه مرارة أو قرف أو تخرقه القرارات المفتعلة أو أطياف الضعف. انه يعمل بتمهل ولكنه يتقدم بخطى ثابتة. فهو بملاحظته الصبورة يوقفها كأي طبيب عند ظهور أي دليل جديد.

تعتبر السيدة كوون (Couaen) الزنبقة الحقيقية بين البطلتين فالعار مهما كان طفيفاً لا يدنس طهارة ندرتها.. فقد سما الإيمان الرصين بقلبها الى القمة البيضاء التي لا تصلها سوى صقور ارشانج (Archange). فقلقها المليء بالأحاسيس الانسانية لا يخرج قط من منطقة الأمومة وحيزها، وهي معطاء بلا حساب ولا يأس أفلا يشكل الصدق كل قيمتها؟ وبراءتها تمنعها من الشعور بالخطأ والتهور الذي ارتكبته بتكبيل قلب شاب. فيما نرى أن السيدة مورسوف (Mortsauf) تلهث وتنبهر إثر استراحة المداعبات الخفية وتتطلع باستمرار إلى هذا العزاء. فالمؤلف يخلق بطلته وفق مزاجه وإن كان

هذا لا يمنع أن وسيلة عمله تدل على جوهره هو. فهو يأخذ من أعماقه أبطالاً ساهمون في طبيعته وإن اضطر الى تطويع روحهم بمادة يأخذها من الوحي الإلهي. لقد عالج بلزاك وسانت بوف موضوعها وفق ميول وأهواء طباعهما. وقد استحوذ أحدهما أكثر من الآخر على تفهم المنابع السرية. فلكأنه عجوز متخصص بارشاد النفوس فيحدد في روح اموري نقاط العفو الغامضة ثم وخط سيرها والاضطرابات التي تثيرها وهو يشير الى توازن الارادة المطـرد الذي تسانده القوة العلوية والذي يستعيد شيئاً فشيئاً تواتر الغرائز العلوية الحيوي. ولا بد اننا كررنا في السابق أن راسين كان مثاله.

الأمر الذي أحاطه مؤلف بالشهوانية بالحساسية وصبغه بالحساسية في صفات اموري (Amaury) فشل مؤلف الزنبقة في سكبه للسيدة مورسوف (Mortsauf) التي تبقى سجينة حماها دون أن تلطف منها رهافة السكون الذي يمنحه العفو، وهذا يعني القضاء على النجدة الإلهية كما بيناه في دراسة هذه المرأة من الناحية النفسية. ويكمن التشابه الغريب لدى الكاتبين في خلطها في نفس ابطالهما بين تأثير المارتينية والمسيحية الصرفة. فكل من هنرييت دو مورسوف (Henriette de Mortsauf) وأموري (Amaury) يؤكـدان أخذهما بتعاليم رجل الرغبة (l'homme de désir). إلاّ أننا نلاحظ أنه في الوقت الذي يسود لديه الإيمان الخاضع للكنيسة تتولد لديها استقلالية في الفكر موافقة للأهواء التي تعذبها.

وأخيراً نجد أن سانت بوف يفعل كيفية ممارسة السيدة كوون

لديانتها Mme de Couäen. فهل يمكننا رد هذا الى حياته؟ أم الى خشيته من امتهان الكهنوت المقدس: أم لبراعة يبينها الفن؟ لقد امتنع سانت بوف عن الاستعانة بأي مرشد في تسيير هذه الصداقة العاشقة. وإننا لنتساءل هل يناسب هذا الوصف أم لا العاطفة التي تملأ قلب السيدة كوون (Mme de Couäen) لأموري؟ إلاّ أننا نجهل هذا حتى اللحظة الأخيرة. وإذا عللناه وفق رغبتنا فعلينا تحمل كافة المسؤوليات. وعلى العكس من هذا نجد أن بلزاك يحمل مرشدي السيدة مورسوف (Mme de Mortsauf) مسؤولية الوضع الغامض والشائك الذي يتخبط فيه قلبها ذلك أن أي قرار واعٍ كان سيضع حداً لهذه العلاقة. فيما نرى أن ليونة سانت بوف قد رفضت الأخذ بهذه الوسيلة التي استغلتها جورج ساند (George Sand) وأوجين سو (Eugène Sue) ومؤلفو الروايات المسلسلة ومحنها. فقد كان المؤلف يفضل أن يعهد الى سرية المذبح بالآراء والنصائح التي يقدمها الراعي الحكيم إلى نعاجه الضائعة لا يشهد على ذلك سوى الملائكة. وتؤكد لنا إحدى صفحات الشهوانية (Volupté) هذا الأمر. ذلك أن ما من أحد قدم رأياً أكثر اجلالاً لدور المرشدين المساعد والمعطاء.

إن نزاع السيدة كوون (Mmede Couäen) وهو مشهد رائع بعظمتـــه يهـز الانسان في أعمق أعماقه ببساطة الكلمات ورموز الإشارات المقدسة. وهو يدل على صلابة المنازع الهادئة المغمورة بقناعته بقرب تحرره. شاتوبريان لم يتمكن من بلوغ هذه النقطة المؤثرة وبلزاك غلفها بالمناورات والاقنعة المسرحية.

ويتيح لنا فن سانت بوف وحياؤه أن نسود الظل الذي تحجبه بعناية روح البطلة المعذبة ، فهو يستغل الانقباض والانكماش ليزن الانفعال ويدخل في المأساة آثاراً سريعة وغير متوقعة. ففي هذا الاحتفال العظيم الذي ستجد فيه مأساة شهوانية نهايتها يحرك المؤلف باحترام أشياء مريعة ويحيط صفات الكهنوت باجلال كبير. فجوسلين يتحدث ويتصرف بوصفه ممثلاً وبيروتو بوصفه مغفلاً اما اموري فيبدو كاهناً حقيقياً. خانعاً لله الذي امر بمواساة الخاطئ المعذب النادم. وهكذا تنمحي الذكريات المؤثرة وتبعد المحاباة الضارة ، وتظهر قوة الوقائع الروحية اصولها المهيبة وتحيط بطاقة خارقة الكاهن الذي يتجلي بايمانه أمام هذه المنازعة التي تطلع إليها في الماضي برغبات غير صافية وقد انطفأت كل شهواته إلى الأبد وملأه الشعور بالندم. وتجبرنا العبارات المقدسة التي يتلفظ بها وهو يتحسس باصابعه أعضاء الحواس ويمسحها بالزيت المقدس إلى قطع معانيها. ويعمد سانت بوف الى تفسيرها وتعليلها ويتبناها ليشعر بعذاب الأنا الداخلية. ويستغل إلى أبعد الحدود جمال القدسية فيتحول اهتمامنا إلى معرفة نيته ، وينكشف فجأة «الستار» الذي كانت تغلف به هذه المسيحية قلبها وتخفيه حتى عن صديقها فنكتشف بغتة بالأمواج التي تعصف بالأعماق دون أن تجمد صفحة بحيرة ايرلندا هذه الصورة التي كان يرمز بها أموري الى عظمة السيدة كوون (de Couaën) ابنة ايرين (Erin) الخضراء.

يدل تقعر اسلوب بلزاك وبريقه الصاحب الذي صبغ بها

أوصافه لنزاع السيدتين مورسوف (Mortsauf) وفيرونيك غراسلين (Veronique Graslin) على القصور والرعونة بالمقارنة مع لوحة سانت بوف الصافية الندية. فقد عجز كاتبنا عن رؤية الجمال البعيد عن العواطف. فقد عزلت عنه عبقريته اضواء الحب الأبدي. ولم يكتشف بريقهـا إلاّ في الـوجـه الآخر للتـاريـخ المعـاصر (l'envers de l'histoire contemporaine) آخـــر رواياته. والسؤال الآن بأية قدرة تملك سانت بوف (Sainte Beuve) الرؤيا المخالفة؟ لقد أفرغت وطهرت موهبته في الشهوة الحسية عمله من بذاءة وتشويه الرومنسية التي تكمد الغاية المسيحية في زنبقة الوادي (Lys dans la vallée).

وإذا نظرنا الى الحياة الكاثوليكية الصرفة، العابقة بكل متطلباتها وأعماقها في الروايتين فاننا نلاحظ أن سانت بوف (Sainte Beuve) هو الذي يفرضها في قلب الحدث.. انه هو المنفذ الحقيقي الذي يكمن فنه في الأسرار المخبأة، وشبه الملونة والذي يبجل العقيدة. فبلزاك يلهث وراء الأشكال التقليدية المعروفة وينظر الى الأمور من الخارج ليوضح فكرته واسلوبه.

* * *

ومهما كان الأمر فقد وضع بلزاك الواقعية في خدمة الافكار الكاثوليكية. وتحسس جمالها الشاعري وقد نافس في البداية شاتوبريان (Chateaubriand) ولامرتين (Lamartine) في وصف المظاهر

والزخارف الخارجية. وعلينا أن نتذكر لوحة صلاة المساء في كلوشغورد (Clochegourde) ولكنه كان بالدرجة الأولى معلم الرواية الذي كان البعض يسميه الرواية النصرانية. الرواية المثبتة للأفكار. بعد أن كان هذا النوع الأدبي غارقاً في الإبهام مختنقاً بغبار بعض المؤلفين الكثيبين المملين الذين كانت سطحيتهم تنشر رتابة على روعة إيمانهم فيثيرون القرف. طبيب الريف وكاهن القرية والوجه الآخر للتاريخ المعاصر كانت غارات جريئة في السماء المقفرة. وبهذه المحاولات أبعد الوحي الرومنسي الباحث باستمرار عن الروعة المسيحية تملق العهود القديمة المستهلك. وقد وجدت روحها الأدبية عبر الأشكال والزخارف اليومية والعادات المعاصرة حتى تلك السائدة في صفوف الطبقات الشعبية. فقد لقيت فيها مشاكل تتطلب الحل، مشاكل أكثر حيوية وإثارة من تفاهة (René). فقد أدخلت الكاثوليكية في ميدان الاصلاح الاجتماعي والاحسان. لقد تعرض لها بلزاك قبل بورجيه (Bourget) وباريس (Barrès) وبازين (Bazin) وبومان (Baumann) وبيغي (Péguy) وبوردو (Bordeaux) ومورياك (Mauriac) وبرنانوس (Bernanos).

ولا يمكن اعتبار مؤلفاته الكاثوليكية تافهة بكاملها فهي تعطيه بنظر المؤمنين عظمة لا يمكن حظرها أو النيل منها فهي تستمر في تحقيق الأهداف التي رمى إليها أي التأثير على النفوس وهو تأثير يريح الجماهير ويتيح تقدمها الأخلاقي. لقد كان بلزاك يستخلص من الحياة الانسانية القوانين الكبيرة التي تسير ويبرهن بالاحداث أن الكائنات

تتعرض كالمحيقات تماماً إلى أقسى التجارب كلما ابتعدت عن الوصايا العشر وخرجت عنها. في هذه الوصايا يكمن سر البطولة وكنهها. فنحن نراه يتحول إلى فضائل لدى بيناسيس (Bénassis) وفيرونيك غراسلين (Véronique Graslin) والسيدة لاشانتري (Lachanterie) ورفاقها وقيصر بيروتو (César Birotteau) والقاضي بوبينو (Popinot) والماركيز ايسبارد (d'Espard) وبورجا حامل الماء (Bourgeat) وكاتب العدل شينيل (Chesnel) والطبيب ميرويه (Mirouët) وبييريت لورين (Pirrette) وأورسول ميرويه والسيدة هوشون Hochon ومارغريت كلايس (Marguerite Claës) وأوجيني غرانديه (Eugénie Grandet) ووالدتها والفلاحة العجوز والدة الأطفال اللقطاء (طبيب الريف) إلخ... ويرد بين مؤلفات بلزاك كتاب سمو المسيحية في لغز الألم وهو كتاب يمكن تصوير غلافه على طريقة الغلاف القديم لطبيب الريف أي بصورة تمثل المسيح وقد حمل صليبه. فكل هؤلاء المسيحيين يرتكزون على أرض البؤس الواجب مؤاساته والتجارب التي لا بد من الخضوع لها ولا يغرقون في المشاهد الخارقة فصلب المسيح وارتفاعه إلى السماء هما حقيقتان واقعتان. ويقول بلزاك ان المرء يشعر بتحسن عند معاشرة هؤلاء الناس، الرمز الحي للحقيقة الأزلية التي يتوجب على كل كاتب عاقل أن يرد بلادنا اليها. ويمكن القول أن بلزاك لم يخطئ فيما خص الكاثوليكية

فقد دلت الأحداث على صدق ذرائعه التجريبية التي تبناها عدد كبير من المقتدين به.

وكان أحد محاكيه نبياً فقد بجل باربيه دورفيلي (Barbey d'Aurevilly) في مقدمة «الأفكار والحكم» (١٨٥٤) حول الديانة والسياسة المقتطفة من «أورال الماس» أي الملهاة الانسانية بعد تصنيفها بالمدح الرائع عبقرية بلزاك القائمة على مفهوم النظام والوحدة والحقيقة.. فقد اعطى جواباً رائعاً للأفكار التي أساءت طويلاً فهم أخلاقية بلزاك ومؤلفاته. ولا بد لهذه الأفكار المسبقة والأوهام أن تزول. فبلزاك المؤمن الكاثوليكي المطلق بأفكاره ككل مفكر ينتمي إلى هذه المدرسة السلطوية التي لا نلقاها إلاّ عند ارتقائنا الى مستوى معين في كافة العلوم وفي كافة المؤلفات الانسانية. إن الكاثوليكية لا تحتاج إلى أحد إلاّ أنها ستعتبر بلزاك يوماً أحد كتابها وأكثرهم اخلاصاً ووفاء، فهو ينهي كافة القضايا كما كانت الكاثوليكية لتنهيها.

- ٤ -
الافكار السياسية

يضع بلزاك على نفس المستوى من التطور التاريخي «الكاثوليكية والملكية، هذان المبدأان التوأمان» كما يقول في المقدمة. لقد كان يؤيد الشرعية أي الحكم المطلق ويعارض الملكية الدستورية. فقد أمضى حياته كرجل وكاتب (١٨٣٠-١٨٥٠) في ظل حكم لويس فيليب وحافظ على ازدرائه للملكية تموز «إذا لم أتمكن من العيش في ظل الملكية المطلقة فانني أفضل الجمهورية على هذه الحكومات الحقيرة الهجنة التي تفتقر إلى روح المبادرة والمبادئ والأسس والتي تثير كافة الاهواء دون الاستفادة من أي منها وتحيل أمة بكاملها إلى العجز لعجزها». لقد كان يعتبر الملك استمراراً للسلطة القوية المحركة للتقدم والحكم بين الطبقات في مصالحها المتناقضة والمتباينة فهو الوحيد القادر على جمح الابتزاز وكبح الاختلاس فهو حامي العدالة. السلطة هي القوة. لذا كان بلزاك يرفض الاقتراع العام «فمن يقترع يناقش ولا وجود للسلطة في ظل النقاش فالجماهير لا تكتسب بالمناقشات الفردية» والبروليتاريا هم قاصرو الامة ويتوجب عليهم البقاء تحت الوصاية...، وهذه حقيقة واقعية وضرورية. فهناك تناقض في الكنه والجوهر بين الجماهير والقانون الذي غالباً ما يتناقض مع مصالح الفرد. علماً ان الجمعية الوطنية

ستهادن هذا الفرد على حساب القانون فتكابد المصلحة العامة من ذلك. ان السلطة لطبيعتها القمعية تحتاج إلى تركيز كبير لتقاوم بقوة ثابتة الحركة الشعبية. لقد كان بلزاك يعتبر البرلمانية امراً مضراً وقد انتقدها بشدة فالجمعية العامة تناقش بدلاً من العمل. لذا لا بد من ان يكـون القانون والسلطة من صنيعـة شخص واحد اضف ان لامسؤولية الوزراء الفعالة تثير طموح السطحيين.

المساواة هي وهم لا يرتكز قط على طبيعة الأشياء. وهو يخالف نظام التفوق الاجتماعي من «تفوق فكري وسياسي وثروات: كالفن والسلطة والمال وغيرها أو بكلمة أخرى المبدأ، الوسيلة والغاية» إلا أنه من الضروري ان يكون للشعب وكلاؤه لتقرير الضريبة: الموافقة عليها أو رفضها وأن يتمكن الأذكياء من النخبة الذين يملكون إرادة قوية الانبثاق من بين الجماهير وان يمتلكوا الوسائل الكفيلة بالاتاحة لهم باكتساب اعداد جيد وبلوغ الدرجات العليا من المجتمع والسلطة. ولا بد من التميز بين «الحرية المطلقة» و «الحريات المحددة والمميزة» فالاولى سراب طوباوي والثانية تشكل واقعاً ناجعاً. الديانة وحدها تستطيع توفير التوازن بين السلطة القصوى والجماهير العاملة المتألمة بابقاء الأولى ضمن حدود العدالة وأمر الثانية بالخضوع وفرض الرحمة على الأغنياء. يجب استبدال الفردية المتولدة عن الثورة بتقديس العائلة، الخلية الإجتماعية الحقيقية. ويرفض بلزاك حرية الصحافة ويتحسر على النبالة وحق البكورية وتوزيع الأملاك بالعدل والقسطاس بين الابناء ويحتج بعنف على القانون المدني.

هذه هي باختصار نظريات بلزاك السياسية وقد تولدت هذه الأفكار عن التعاليم التي غرفها من مؤلفات جوزيف دوميتر (Joseph de Maistre وبونالد (Bonald) «هذان النسران المفكران» اللذان اتخذهما استاذين له «مختاراً» وفي وقت مبكر. وقد كتب في نهاية حزيران ۱۸۳۰ إلى صديقته سلمى كارو (Zulma Carraud) يقول: «لقد تأملت مطولاً في بناء المجتمعات. وأنا لا افكر منذ اليوم مع هوبس (Hobbes) ومونتسكيو (Montesquieu) وميرابو (Mirabeau) ونابليون (Napoléon) وجان جاك روسو (J.J. Rousseau) ولوك (Locke) وريشوليو (Richelieu)...» وكان يقول: «اذا كان الفكر السياسي يتطلع إلى تحقيق راحة الجماهير فان الحكم المطلق أو أكبر تركيز ممكن للسلطة مهما كان اسمه هو أفضل وسيلة لبلوغ هذا الهدف الإجتماعي (الرحيل ۱۸۳۲). ولا تتوافق هذه الأفكار السياسية تماماً مع نظرية الملكية الفرنسية التقليدية فقد أدخل بعض السمات القيصرية في وصفه لرجل الدولة ورئيسها ونجد هذه الأفكار معروضة بشكل واضح في طبيب الريف (Le médecin de Campagne) على لسان الطبيب بيناسيس (Bénassis) وفي كاهن القرية Le curé de Village والوجه الآخر للتاريخ المعاصر... وتوطد هذه المعتقدات وتوضحها بعض الروايات والمقالات والرسائل الأخرى...

لقد تحققت توقعات بلزاك السياسية في نقاط عديدة: سقوط ملكية تموز وارتقاء الديموقراطية والإشتراكية والشيوعية. وكان يعتبر

هذه الأحداث نتيجة للامبالاة البورجوازية الأنانية ورغبتها بالاثراء السريع على حساب العدالة الاجتماعية وتغاضي الحكومة وعجزها عن رؤية سخط البروليتاريا. كما فضح «البؤس الفظيع الذي تقوم عليه البورجازية الباريسية» فالملهاة الانسانية مليئة بصور النبلاء الذين لا يستحقون لقبهم والبورجوازية الدنيئة الخسيسة والكهنة الدساسين المتآمرين والمستهوين. ولا يمكن اعتبار هذه الصور دليلاً على عدم صدق صاحبها السياسي.

غالباً ما يتردد قول (Taine) (في نهاية دراسته عن بلزاك) الوارد في بحثه الجديد عن النقد والتاريخ بان بلزاك «هو سان سيمون الشعب» ويمكننا ان نجد في الدراسة الأدبية والفلسفية للكوميديا الأنسانية التي وضعها مارسيل باريير (Marcel Barrière) مقارنة بين مذكراتي (مؤلف مذكرات تاريخية أو أدبية) القرن السابع عشر ورومنسي القرن التاسع عشر مصور العادات «لقد كان كلاهما بالمرصاد لنقائص وتجاوزات السلطة كانا قاسيين لا يرحمان مثل دانت (Dante) وفي نفس الوقت ساخرين مثل موليير (Molière): لقد قاما بنفس الدور كمنصفين... فقد أدت سخرية بلزاك وسان سيمون من نقائص وتجاوزات عصرهما الى نفس النتيجة التي بلغتها احكام تاسيت (Tacite) على الحكام في روما القديمة.

فهل يعني هذا أنه يتوجب علينا ان نتبع اقوال فكتور هيغو (Victor Hugo) في الكلمة التأبينية التي ألقاها أمام قبر بلزاك ونصنف هذا الأخير «في مرتبة الكتبة الثوريين»؟ لقد لقيت هذه الفكرة

صداها «الاتهام الإجتماعي الكبير يدوي عبر الملهاة الإنسانية (La Comédie humaine) فمؤلفها يشير إلى الخفايا والاجهزة والقوة السرية والكواليس والمصالح السائدة في عصره» فارتقاء الطبقة البورجوازية بتطورها الصناعي والتجاري الرهيب إلى السلطة وحركة الأرستوقراطية نحو البورجوازية المنتصرة، وتحول طبقة اجتماعية بسبب أخرى متولدة عن ظروف معيشية مختلفة وقيام طبقة جديدة قلبت أشكال الحياة القديمة وادخلت معاييرها هي في مختلف الميادين وفق ماتكتبه السيدة ماري بور (Marie Bor) في بلزاك يواجه بلزاك (Balzac contre Balzac) في كراس زهرة النسرين (Les cahiers de l'Eglantine). ونحن نستمع في الاب غوريو (le Père Goriot) كيف يتهجم المحكوم عليه بالاعدام فوترين (Vautrin) على الجهال الاجتماعي ويلقن الشاب أوجين دوراستينياك (Eugène de Rastignac) «الثورة على الموافقات الأنسانية وشرط النجاح الأساسي هو الترفع عن القوانين» التي لا تصل أية مادة منها إلى العينية ولا بد من ازدراء الناس واستغلالهم كوسيلة لبلوغ المآرب. لا بد من البحث عن اللحات التي يمكن تجاوز شبكات القانون عبرها ويوافقه بلونديه (Blondet) الرأي بقوله ان القوانين هي نسيج العنكبوت الذي تتجاوزه الذبابات الكبيرة وتقع فيه الصغيرة منها (la maison Nucingen) انهم المستغلون ورجال الأعمال مثل تيليه (Tillet) وفينو (Finot) وأصحاب البنوك مثل (Nucingen) نوسينجين

والمرابين مثل غوبسيك (Gobseck). وتتضاءل كل الاعتبارات والقواعد حين يفهم راستينياك ويستوعب امثولة فوترين (Vautrin) : فقد رأى العالم على حقيقته وشهد القوانين والاخلاق عاجزة أمام الاغنياء و رأى في الثروة منطق القوي المطلق « l'ultima ration mundi » وهكذا بدأ يحول الحب إلى وسيلة للاثراء وانهارت أوهامه حول الشرف والاستقامة أمام بريق الذهب والترف الذي يوفره. ويصرخ (Rubempré) روبومبريه ربيب فوترين (Vautrin) المتنكر بثوب الكاهن كارلوس هيريرا (Carlos Herrera) بعد ان اغتاله «الذهب وبأي ثمن». ويتداعى وسواس الضمير أمام الكبش الذهبي ، المعبود المغوي الذي يغري كل الطامحين الموهين وكل طالبي اللذة (الاوهام الضائعة Illusions perdues). وهم كثيرون في الكوميديا الانسانية (la Comédie humaine) فالمال ينشر سلطانه على جماعة من المتهلسين الباحثين عن الثروة. وكم وقع من المآسي العائلية بسبب الميراث الجاذب للأنظار ، والوارثات المرغوبات ، وتنافس المصالح النقدية والفساد والرشوة ! فما من رواية الا وتعكس الأهواء المرتشية وجنون التملك الذي يتجاوز القانون والفضيلة في سبيل التلذذ بالعيش وهذا في كافة الأصوات. فالأب غوريو (Goriot) يصرخ في نزاعة «المال يوفر كل شيء حتى عاطفة البنوة» فقد اكتشف أن الباعث الحقيقي لحب بناته له هو رغبتهن بالاستحواذ على ملايين ابيهن : فقد قيمن مشاعرهن بالمال ، هذا المال الذي يؤدي إلى قيام

مجابهة بين دلفين (Delphine) وأناستازي (Anastasie) منافسة تجعلهن أشبه بالضباع. فسلطان المال المطلق يسود ويحكم كافة الأهواء ويشوه عادات الفضيلة والشرف ويحل مكان العقل في تسيير المجتمع : «الذكاء هو الرافعة التي تحرك العالم والمال هو نقطة ارتكاز هذه الرافعة».

وإذا رغبنا بالإطلاع على دور المصارف والمرابين في ظل عودة الملكية وحكم لويس فيليب (Louis Philippe) فان اوجيني غرانديه (Eugenie Grandet) وآل نوسينجين (la maison Nucingen) وقيصر بيروتو (César Birotteau) تظهر لنا فساد آل نوسينجين (Nucingen) وكيلر (Keller) وتيلليه ، (Tillet) وتواطؤهم السياسي المضر. ويمثل كل من غوبسيك (Gobseck) والأب غرانديه الشغف بالذهب هذا الشغف الذي يلقي ظلاله على الحس الأخلاقي ويطمسه ويخمد كافة المشاعر العظيمة. وقد كرس له بلزاك رواية ماركاديه (Marcadet) التي تحمل اسم البطل الرئيسي وهو سارق تلتف حوله عصابة من النصابين والمحتالين والمرابين والمقامرين ومخربي المجتمع.

هل يمكن اعتبار بلزاك لوصفه الوجه الآخر من الحضارة والسياسة وممارسات أصحاب المصارف الكبرى التي تؤدي إلى إفلاس الآخرين ، والشخصيات الهامة والقراصنة الذين يحظون غالباً بالغطاء القانوني اللازم لهم ، هل يمكن اعتباره مخرباً يهدم النظام والمجتمع ؟

ان بلزاك بوصفه رساماً للعادات ومؤرخا لجيله يصف كافة أشكال التجاوزات وإساءة استعمال الحق ويندد بها بوصفه قاضياً منصفاً ويقدم لها العلاج بوصفه طبيباً اجتماعياً. فمهما اختلف النظام فان رجال المال الباحثين عن الربح طامعون إلى درجة لاتمنعهم من قهر ضحيتهم. ولم يخطئ الروائي بوصف الوسائل التي يعتمدونها في السرقة والاختلاس فهو يقوم بمهمة تطهير سياسي واجتماعي. فمن يرفض أن يكون ثورياً على طريقة بلزاك؟ فالكشف عن التجاوزات في كافة الميادين هو الشرط الأول لإصلاحها. لقد كان لتسلطية الأثرياء ممثلة عبر المغامر تيلليه (Tillet). وقـد عهد بلزاك إلى زوجته اوجيني دوغرانفيل (Eugenie de Granville) إبنة قاضٍ كبير وأحد نبلاء فرنسا مهمة وصف أفعال وتصرفات زوجها «تبدو لي بعض الاغتيالات الواقعة في العراء أعمال احسان بالمقارنة مع بعض التركيبات المالية» بنت حواء (Une fille d'Eve) لقد كان بلزاك يؤمن ان الحكم المطلق قادر وحده على حماية الشعب الذي يعتبره المستفيدون من الأموال العامة والخاصة ضحية سهلة ولقمة سائغة.

وفيما يلي نهاية آل نوسينجين (la Maison Nucingen) لقد تاحت عمليتا إفلاس إحتيالي للمصرفي نوسينجين جمع ثروة كبيرة قامها على خراب عدد كبير من الناس الذين جمعوا ثرواتهم بالعمل الجاد المرهق. فكان يكدس الرساميل بالمضاربات الخبيثة ويتمكن من تهرب من الوقوع تحت طائلة القانون مما يدفع بلونديه (Blondet)

إلى المطالبة بالعودة إلى السلطة المطلقة التي تقمع كافة المؤسسات المتعارضة مع روحية القانون. نعم الاستبداد ينقذ الشعوب بنجدته للعدالة. فلا وجه آخر لقانون العفو. ذلك ان الملك (الدستوري) القادر على العفو عن المفلس الاحتيالي لا يعيد شيئاً إلى الضحية المنهوبة. الشرعية تقتل المجتمع الحديث. فهذه الشرعية قد اخرجت اورغون (Orgon) من منزله الا ان الحاكم المطلق يفسخ العقد الذي يجرد الضحية من كل أموالها ويعطيها للمحتال. ويعيد إلى اورغون (Orgon) ثروته ويلقي الخائن في غياهب السجن.

* * *

هل حافظ بلزاك بثبات وحتى النهاية على آرائه حول الملكية؟ ينقل الكسندر ويل (Alexandre Weill) في مذكراته حواراً جرى على مائدته بين بلزاك واوجين سو (Euqène Sue) وهنري هين. (Henri Heine) في صيف عام ١٨٤٧. حيث عرض بلزاك على الضيوف مبادئه المعادية للجمهورية والمعادية للاشتراكية والمعادية للشيوعية. ولكن هذا لم يمنعه ان يكتب في ٢٠ نيسان ١٨٤٨ في السجال (Debats) رسالة تعتبر رأيه المجهر حول العقيدة السياسية. وتشكل رداً على النوادي التي اخطرته رسمياً بوجوب الحضور وإيضاح موقفه. «منذ ١٧٨٩ وحتى عام ١٨٤٨ عمدت فرنسا واذا شئتم باريس إلى تعديل دستور حكوماتها مرة كل خمسة عشر عاماً. الم يحن الوقت لإيجاد شكل جديد أو امبراطورية أو نفوذ ثابت في سبيل حماية املاكنا

وتجارتنا وقيمنا وعظمتنا أي كل القيم التي تعتز بها فرنسا؟ أريد أن تكون الجمهورية الجديدة قادرة وحكيمة لأننا نحتاج الى حكومة توقع عقداً لفترة تزيد على خمسة عشر أو ثمانية عشر عاماً! هذه هي رغبتي وهي تساوي كافة عقائد الايمان».

وقد جرت انتخابات الجمعية التأسيسية في ٢٩ نيسان ولم يحصل بلزاك الا على عشرين صوتاً وقد كتب بهذا الخصوص إلى السيدة هانسكا في ٣٠ نيسان: «لقد قضت آرائي حول السلطة التي ابغيها قوية حتى الاستبدادية على حظي بالحصول على مقعد في الجمعية كما ان رسالتي التي وجهتها لم توفر لي أي صوت في صفوف البورجوازية الخرقاء اللاهثة. وهكذا عرفت أنني لن أفوز في هذه الجمعية التي عينوا فيها احد القوالين واسمه بيرانجيه (Béranger) وخمسة عمال! انها لمأساة» باختصار يمكن القول ان بلزاك لم يعدل افكاره السياسية واخذه بالشكل الجمهوري للحكومة كان مؤقتاً فقد انضم إلى المعارضة لتطلعه إلى عهد أفضل.

ويمكن القول وفق العبارة التي انهى بها الكسندر ويل (Alexandre Weill) ان بلزاك كان يرى الحل في جمهورية يحكمها الملكيون كما يظهر في المقارنة بين النصوص فالعبارات التي رثا فيها بلزاك رحيل شارل العاشر (Charles X) إلى المنفى (الرحيل le départ 1832) ونهاية الملكية الشرعية مطابقة تماماً. لتلك التي أعلن عبرها انضواءه إلى الجمهورية اذا رغبت في حماية وتشجيع «كل ما يبني أمة عظيمة ومتقدمة». والفن والفنانين والتجارة التي تحيا بالتعامل بين الناس والفخر والملكية والثروات المكتسبة.

– ٥ –

الأخلاقية والنفوذ

«لم يحن وقت التجرد بالنسبة للحكم علي» هذا ما كتبه بلزاك عام ١٨٤٢ في مقدمة الكوميديا الإنسانية (l'Avant propos de la Comédie humaine) وغالباً ما كان يشكو من «عدم فهم وتقدير أعماله» نعم لقد حصل هذا في فرنسا لا في الخارج حيث كانوا يجلون موهبته كما يقول سانت بوف (Sainte Beuve) ويمكننا أن نطلع على التفاصيل في لوحة مارسيل بوترون (Marcel Bouteron) المكرسة لإجلال بلزاك. وقد كان الروائي موضع احترام وعناية خاصة في إيطاليا وروسيا والنمسا وبولونيا والمانيا وهنغاريا وهذا دليل على تأثير رواياته العميق ليس فقط على الأفكار بل على العادات عبر تغلغلها فيها. فقد كانوا يقلدون أفعال وحركات أبطاله ليحسوا شعورهم ويعيشوا مغامراتهم. كذلك علينا ألا ننسى بأي عمق هوت النساء الفرنسيات من شابات وبورجوازيات ونبيلات كاتبهن وانهلن عليه بآلاف الرسائل. فالنساء هن اللواتي بنين نجاح بلزاك وحققنه فقد وجدن فيه صديقاً حميماً ومواسياً. الأمر الذي أخذه عليه بعنف النقاد الكاثوليك مثل بون مارتان (Pontmartin) وكارو (Caro) وبعض الكاتبين الأردأ الذين يفتقرون إلى الذكاء والليبرالي لارمينيه (Lerminier) ومؤخراً

أندريه لوبروتون (André Lebreton).

رد بلزاك على هذه الانتقادات وقد تأثر بها عام ١٨٤٢ في مقـــــدمـــــة الكوميـــــديـــــا الانسانيـــــة (L'Avant propos de la Comédie humaine) بعد أن أخذ عليه الكشف عن الخزايا السرية والرياء الاجتماعي وتعريتها وأغضبت جرأته هؤلاء المستفيدين من اخفاء ضعفهم وفسقهم خلف التقيد بالأعراف السائدة. مما دفعه إلى الدفاع عن نفسه بحماس وبراعة في رده على إيبوليت كاستيل (Hippolyte Castille) المعجب بموهبة بلزاك رغم أنه يعيب عليه كثرة الفاسقين الذين يفسدون عليه عالمه. ويمكن اختصار الحجج التي تقدم بها بلزاك بالعبارة التالية «هل يؤخذ علي كثرة الفاسدين على الأرض؟ السيد الحاكم وحده هو القادر على تمييز الطيبين من الأشرار والفصل بين النعاج والماعز». إذن يمكن القول أن بلزاك أخلاقي لأنه يدفع قارئه إلى التفكير والتأمل. «فان وجـــد أمرؤ أثنـــاء قراءتـــه للملهـــاة الانسانيـــة (La Comédie humaine) أن آل لوستو (les Lousteau) ولوسيان دو روبومبريه (Lucien de Rubempré) لا يستحقون اللوم فهو يـدين نفسه. فمن لا يفضل أن يقوم بـدور بيروتو (Birotteau) الأمين والتشبه بـم. ديسبار (M. d'Espard) بطل الخطر (l'interdiction) والتصرف على غرار طبيب الريف (le medecin de Campagne) والتـوبـة مثـل السيدة غرالين (Mme Graslin) والاتصاف بسمات القاضي بوبينو

(Popinot) والعمل مثل دافيد سيشار (David Séchard)
وآل دارتيه (les d'Arthez) بدلاً من اللهاث وراء الثروة ومطاردتها
كالخبثاء والمحتالين. أي بكلمة أخرى الاقتداء بالنماذج الطيبة والفاضلة
المزروعة في الملهاة الانسانية بنسبة أكبر مما توفر فيه في العالم الحقيقي».
ملك بلزاك القدرة على إعلان الحقيقة حول وضع العادات ومهاجمة
الأغنياء والنافذين.

لقد أخذ على بلزاك الانسياق في وصف البشاعة الأخلاقية
ولكننا يمكن أن نضع مقابل المخلوقات التعسة الكريهة صوراً جملها
الحب البنوي والتفاني الزوجي والإحسان. ويفترض الحكم المنصف
على أخلاقية الملهاة الانسانية (La Comédie humaine) توفر فكر
قادر على شمول هذه الملحمة الضخمة الأبعاد وتحويل هذا الادراك
للتجمهر الانساني الذي يخضع فيه البعض إلى التواطؤ الغامض بين
مختلف القوى الحيوانية ويناضل فيه البعض الآخر بنجاح ضد
الشهوات إلى مبادئ ماورائية.

ندد في الماضي بأذية الفتاة ذات العيون الذهبية
(La fille aux yeux d'or) فمن يتجرأ وينكر أن الانسانية الساقطة
لا تعرض اليوم مثيلها في جريدة المحاكم؟روبومبريه(Rubempré هو
اليوم قميص ذهبي. من ينكر أن الحظر (l'interdiction)
وقداس الملحد (la messe de l'Athée) وقيصر بيروتو
(César Birotteau)وطبيب الريف(Le médecin de Campagne
وبييريت (Pierrette) والوجه الآخر للتاريخ المعاصر

لا تقدم أفضل (l'Envers de l'histoire contemporaine) ذاتنا وترفع روحنا إلى قمة الخير في أجواء روحانية؟ ليس هناك سوقية وخساسة وابتـــذال فقط في الملهـــاة الإنسانيـــة (la Comédie humaine) ؛وليست «قمة الشيء» رغم كل نعوت الكونت أرمـان دوبـون مـارتين (Comte Armand de Pontmartin) لها. فهي كمثل الحياة توفر الصالح والطالح. وتـترك لكل فرد حرية اختيار رفاقه. ذلـك أنه في مرحلة من مراحل العيش تدفعك الموجبات إلى الاختلاط بمختلف الفئات وتقتضي الفضيلة على التمسك بالأمور التي تؤمن بخيراتها فهذا هو الصراع بين الجسد والروح الذي وافق عليه السيد المسيح. ونحن نتوجه هنا إلى الأفكار المثقفة التي تعتبر أن لا وجود للجمال إلا في ظل الحقيقة وأن الرياء والتملق وتفاهة المصطلحات لا توفر المناخ الصالح لتحقيق الاحترام. فالجمال الجدير بهذا الإسم لا يمكن أن يستند إلى الأحكام المسبقة.

لا بد من الاغتباط فقد دقت ساعة التجرد التي انتظرها بلزاك طويلاً. فحول مؤلفاته تتجمع اليوم الفطن وباعثها ابراز ما تحويه من انسانية وازلية وحيوية وروعة فنية.

لقد مضى العهد الذي كانت تعتبر فيه الكوميديا الانسانية مصنفاً ماجناً. وبات يسود الاعتقاد بأن أفضل ميزاته هو تقديم روايات ثالهية غير روايات الحب هذا الهوى الذي كان يشكل حتى عهده روح القصص. وقد رغب بلزاك كما بينا أن يطبعها كلها وبكل أنواع. فأعطى بذلك مادة غنية وخصبة لخلقه.

يعتبر بلزاك أبو الواقعية وقد برهن أن للواقع قيمة جمالية وأخلاقية وقد تابع هؤلاء الذين أتوا بعده مثل فلوبير (Flaubert) وموبسان (Maupassant) وغونكور (Goncourt) ودوديه (Daudet) بأخذ نماذجهم من العالم الذي يحيط بهم من خلال تجاربهم الشخصية مع الاحتفاظ بابتكارهم. ويمتد هذا النفوذ بعيداً ويغزو العالم الثقافي وقد خصص م.أ.ر كورتيوس (M.E.R. Curtius) فصلاً كاملاً من كتابه «بلزاك» ليبين هذا.

ولا يسمح لنا بتجاهل رائد التبحر في بلزاك الفيكونت سبوليرش دو لوفونجول (Spoellerch de Lovenjoul) الذي جمع بحماس ما يمكن تسميته بوثائق ومحفوظات بلزاك، هذه الثروة من المستندات التي وهبها إلى معهد فرنسا (Institut de France). ويعتبر مؤلفه تاريخ مؤلفات بلزاك (Histoire des œuvres de Balzac) مجموعة من المعلومات التي يستحيل على أي معجب ببلزاك أو مؤرخ أدبي الاستغناء عنها.

لقد وجد بلزاك في الولايات المتحدة معجبين كُثُر تعلّقوا بوسائله التقنية وقدّموا دراسات قيمة أدّت إلى معرفة أفضل بفن ذي مصادر غير منتظرة.

وإذا أردنا تقديم دراسة شاملة فعلينا ألاّ نترك جانباً تأثير بلزاك على الأفكار السياسية والاجتماعية في بداية القرن العشرين. لقد اعتبره بول بورجيه (Paul Bourget) استمراراً لبونالد (Bonald).

وجوزيف دو ميتر (Joseph de Maistre) فيما غرف بعض الكتبة الاشتراكيين من مؤلفاته عوامل تجديد وتقدم اجتماعي.

ألاّ يدل هذا التلاقي في الأفكار المتناقضة ان الملهاة الانسانية هي أولاً عالم صغير ينقل بعظمته وتنوعه صورة الانسانية الحقيقية والنابضة بالحياة؟ لذا يخلب لب كل قرائه بهذا الفن القريب من السحر فيؤخذون ليس فقط بالكاتب الذي يحول الى قصائد، البؤس والفرح – بؤسنا وفرحنا نحن – بل بالانسان ويكنون له مشاعر الصداقة والاعتراف بالجميل رغم أخطائه.

المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بناية برج الكارلتون ـ ساقية الجنزير
ت : ٣١٢١٥٦ ـ برقياً : موكيالي : بيروت
ص. ب ١١/٥٤٦٠ بيروت